محمد كمال ونّاس

عقلاء أم مجانين

عنوان الكتاب: عقلاء أم مجانين

الكاتب: محمد كمال ونّاس

نوع الكتاب: مجموعة قصصية

الناشر: الثقافية للنشر والتوزيع المنستير تونس

المطبعة: مطبعة الثقافية المنستير تونس

الطبعة الأولى: 2016

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الإهداء والتّقديم

إلى كلّ من يحبّ الحقيقة بحلوها ومرّها ويسعى إليها ويضحّي من أجلها بدءا بالفلاسفة والعلماء والمفكرين، هؤلاء التّين نسمّيهم العقلاء، ونهاية بالأطفال والسّذج والمجانين التّين هم في نظر العقلاء ليس لهم في دعواهم تجربة طويلة وخبرة كافية وعقل راجح وعلم نيّر لمعرفة الحقيقة وسبر أغوارها.

لكــن الأمـر يختلف عندي وفي تقديري فــإنّ الأطفــال والبسـطاء والبلـهاء تجري على ألسنتهم الحقيقة و ترتسم في مخيّلاتهم وتصوّراتهم وعقولهم "الصّغيرة" وإن كانت هذه الحقيقة التي يصرّحون بها نسبيّة لأنّهم يتكلّمون على البداهة ولا يعرفون معنى للمجاملة أو المغالطة أو التّأويل المفتعل.

ومن هذا المنطلق فإنّ البحث عن الحقيقة نسبيّة كانت أم مطلقة وإدراكها والوصول إليها والتكيّف معها في شتّى مجالات الحياة هو حقّ مشروع لكلّ مخلوق وجد على وجه البسيطة، وهو هدف نبيل ولكنّه مضن يتطلّب صبرا ومكابدة في كثير من الأحوال في عالم الموجودات أقصد العالم السّفلي.

إذن الجري وراء الحقيقة والسّعي إليها حقّ مشروع فطريّ للجميع دون استثناءات فهو حقّ مقدّس للعقلاء والمجانين على حدّ السواء وللكبار والصّغار وللذّكور والإناث دون تميّيز.

إنّ إنسان الماضي وإنسان الحاضر وإنسان المستقبل تكبّد وسيتكبّد معاناة دائمة وقد حاول وسيحاول فكّ رموزها للعيش في كنف الأمن والسّلام والسّعادة، وقد فشل وسيفشل ونجح وسينجح في محاولاته لإدراك الحقائق النّسبية أو المطلقة، ولعلّ السّلوى الوحيدة لهذا الإنسان تكمن في أنّ الحقيقة ستتجلىّ في أبهى مظاهرها

في عالم الأزل والبقاء أقصد العالم العلوي الّذي يسوده العدل والحقّ والخير الإلاهي وسيكون الجزاء من جنس العمل ثمّ الخلود.أمّا أبرز معالم العالم السّفلي فهي قيود وحدود وأزمات ومعاناة وعمل بلا جزاء ثمّ الفناء.

مجموعتي القصصيّة "عقلاء أم مجانين" هديّة إلى العقلاء والمجانين وهي إسهام بسيط في البحث عن الحقيقة وفهم كنهها في زمن تعاني فيه الإنسانيّة أزمات حادّة: أزمات أخلاقيّة واقتصادية وبيئيّة واجتماعية ونفسيّة وروحيّة، وفي كلمة واحدة أزمات وجوديّة.

والله وليّ التّوفيق

قصيبة المديوني في 16 جمادى الاولى 1426 هـ الموافق لـ 2005/06/23 مـ

هاتف غريب

البارحة استيقظت من نوم عميق على صوت هاتف يخاطبني. قال موجّها كلامه إليّ:

- أريد أن أعرض عليك أمرا في غاية الأهميّة فكن على استعداد تامّ لسماعي وتطبيق أوامري وتنفيذ نصائحي وإلاّ...

وتوقّف عن الكلام فجأة منتظرا ردّي.

استغربت في بداية الأمر كلامه لأنّه كلام فيه تهديد ووعيد ولكنّي تمالكت وتسلّ حت بالصّبر وقلت في نفسي:

- أستجلي الأمر أوّلا ثمّ يكون ردّي إمّا ردّا جميلا وإمّا ردّا عنيفا قاسيا.

وبنبرات فيها شيء من الخوف والحدّة سألته:

- هل تعرفني؟هل حقّا تريد أن تكلّ مني في أمر يهمّني أو ليس له شأن بي؟ هل هيّ إملاءات وأوامر تريد منّي

الالتزام بها أم هي مواعظ ونصائح تريد أن تقدّمها لي لوجه الله؟

قاطعني الهاتف بسرعة وبصوت مرتفع جهوريّ أجابني:

- أوّلا لم هذه التّساؤلات العديدة؟ ولم تكثر عليّ من الجدل العقيم؟ قد نفد صبري وتصبّب العرق من جبيني وليس لديّ وقت لإضاعته في أشياء تافهة. المهمّ في الأمر أن تصغي إليّ بجديّة وتفتح بصيرتك وبصرك وتسمع جيّدا ما أقول لك وإلاّ ستكون عاقبتك وخيمة وسينزل عليك عذابي كالصّاعقة ولا هوادة فيه وسينتظرك نذير شؤم عليك وعلى أمثالك أيّها الوغد الوقح!فاسمع وع ولاتكن أحمق غبيّا فأنا صاحب الأمر والنّهي في هذا المقام وما عليك إلاّ السّمع والطّاعة من دون نقاش أو مماطلة.

تلقّفت هذا الكلام بقلب واجف وصوت مرتعش وفرائص مرتجفة وقوى خائرة ولكنّي مرّة أخرى تماسكت وواجهته فخاطبته قائلا:

- ولكن على الأقلّ أخبرني من أنت ولك السمّع و الطاعة والإنصات والإذعان!

أجابني دون تردّد ودون تمكيني من فرصة لتبرئة نفسي النّي وجدتها واقفة في قفص الاتّهام دون ارتكاب إثم أو جريمة يعاقب عليها الشّرع أو القانون:

- هذا أمر لا يعنيك من أكون أنا وأنت لست أهلا لأقدّم لك بطاقة هويتي!لم أذكر لك في بداية حديثي أنّك بالنّسبة إليّ معرفة بل معرفة جيّدة ولست نكرة بالنّسبة إليّ وإلى جميع أعواني بل أنت المعرّف بالألف واللاّم في سجلاّتي ودفاتري وهذا المبرّر فقط يكفيني بأن ألزمك بأوامري وإن لم تنصع لها فويل لك!أنا على بيّنة من أمرك منذ ولدت وترعرعت ونشأت ويفعت وكهلت وشبت،اعترافاتكوأقوالك وأفعالك كلّها مدونّة عندي في ملفّاتي ودفاتري بكلّ تفاصيلها بأصولها وفروعها ولا حاجة لي بشهود لإثبات إدانتك، بل أجزم أنّي أعلم ما يجول في خاطرك وما يدور من أفكار ونوايا في عقلك وما تكتم من أحاسيس في قلبك المرتعش نحوي ونحو الآخرين، فكفاك خبثا وهراء وإلاّ فسوط من العذاب سأسلّطه عليك إن لم تسمع لكلامي ولم تنّفذ أوامري بحذافيرها والويل لك إن عصيتني وحاولت خداعي فأنا

خبير في فنّ المراوغات والتحيّل والخداع وسأفضحك أمام القاصي والدّاني والكبير والصّغير والجليل والحقير وفي الوقت الآجل والعاجل فأنصت لما أقول.

ومرّة ثلاثة عزمت على إنقاذ الموقف وأجبت مخاطبي بكلّ أدب ولين ولطف شأني شأن غريق تعلّق بقشّة لإنقاذ حياته وسألته بصوت متهدّج:

- لكن ما هو الجرم الذيّ ارتكبته في حقكّ يا سيدي أو في حقّ الآخرين؟وهل أنت متيقّن من مخاطبة شخص تعرفه؟ولعلّك تريد مساءلة غيري أو ربّما التبس عليك الأمر وتشابهت عندك الأسماء والمسمّيات والعناوين والهويات وإنّي ملتمس منك العفو والصّفح إن كان في كلامي بعض من الحدّة لأنّ خطابك باغتني وأيقظني من نومي في ليلة ظلماء موحشة.

وانقطعت نبرات صوتي وارتعشت فرائصي واضطربت دقّات قلبي وتلعثم لساني ولم تكن لي الشجاعة الكافية لمواصلة حديثي لتجلية أمري وتبرير موقفي لأنّي لاحظت في عينيه احمرارا وشررا ونقمة وأحسست أنّ مزاجه في توتّر وعصبيّة وانقباض فأسلمت أمري للأقدار تفعل بي ما تشاء وتريد وبدا حالي حال

مريض طريح الفراش يتجرّع شربة ماء لتخفّف عنه الحمّى والألم.

تجمّد الدّم في عروقي وأصبحت كالجثّة الهامدة لا حراك لها ولا كلام تنتظر رحمة من السّماء نازلة. وسرعان ما عاد إليّ قليل من الوعي إذ أحسست بخطى ثابتة متشنّجة تدنو منّي وإذا بالهاتف الغريب يحملق في وجهي دون أن ينبس بكلمة واحدة تاركا لنفسه مساحة زمنيّة للتّفكير والتّدبير والتّقدير.

وفجأة خرج عن صمته المقيت وتلفّظ بغلظة وقسوة وحدّة فقال:

- عيوني تراقبك بالليّل والنّهار وتجول في عقلك صباح مساء وتعرف سرّك وعلنك.أنت أجرمت في حقّ الآخرين ولم ترتكب جريمة واحدة بل جرائم وجنحا ومخالفات يعاقب عليها القانون المحلّي والدّولي، وأنا من موقعي هذا في يومي هذا في ساعتي هذه سأسلّط عليك قانوني لتكون عبرة لغيرك، استمع جيّدا لأوامري ونفّذ في الحال كلّ ما أقوله لك بالحرف الواحد وقيّد نفسك به في الحاضر والمستقبل وإلاّ عرّضت نفسك إلى التّهلكة والخسران المبين، وهذه تعليماتي إليك في وضوح تامّ:

أوّلا: لا يعنيك ما أقول وما أفعل ولا تكن عرضة في طريقي أو حجر عثرة تجاه قراراتي وإلاّ أطلقت عليك كلابي تنهشك نهشا وتحول بين عظامك ولحمك.

ثانيّا: لا تتدخّل في شأني وشأن الآخرين فأنا التّي أدبّر شأني وشؤونهم وهم قطيعي وخرفاني وأنت خروف منهم واعلم أنّ الخروف الوديع أو المشاكس إذا انقطع عن القطيع تاه والسكين أولى به، فيا خروفي "الوديع" الزم حدودك وتقوقع في مكانك وانزو في زريبتك ولا تخاطبني فيهم فناصيتك وناصيتهم بيدي وأنا لي مطلق الحريّة في التّصرّف في شؤونك إن كانت لك شؤون وفي شؤونهم إن كانت لهم شؤون، فمن يدبّر أمرك وأمرهم غيري؟ أفهمت أيّها الغبيّ؟

و يا أيّها المجرم بامتياز والإرهابي الخطير والخروف المشاكس ضع في اعتبارك أنّك إن لم تلزم نفسك بتعليماتي وأوامري وحاولت الخروج من جحرك فإنّي قد شحذت سكيني لأقطع لسانك ورقبتك.

وأردف قائلا:

- كلامي هذا تهديد ووعيد نذير شؤم عليك وعلى أمثالك فاتركني في سلم وأمان ولا تتدخّل في أمور لا تعنيك من قريب أو بعيد.

هذا إنذاري الأخير وإلاّ فانّك تعلم والكلّ يعلم أنّ من تجاوز حدودي ألحقت به الهلاك.

عند كلمة "الهلاك" سكت الهاتف وغاب عن الأنظار.

.....

وأفقت من نومي وفتحت عينيّ فتعوّذت وبسملت ثمّ ملأ النوّم أجفاني.

في 15 جمادى الاولى 1426هـ

الموافق لـ2005/06/15مـ

صديق أم عدوّ؟

في فصل الصّيف وفي ليلة شديدة الحرّ إرتميت على فراشي لآخذ نصيبا من الرّاحة بعد يوم من الجهد والتّعب والرّكض وراء قضاء حاجات حياتيّة بصنفيها الضّروريّة والكماليّة إن صحّ هذا التّصنيف وما أكثرها في عصرنا عصر الإشهارات والمغريات والشّهوات.

أحسست باسترخاء ودبّ النّعاس إلى أجفاني فغرقت في حلم قادني إلى سفر عجيب لم يحصل ألبتةأنّي سافرت في حياتي مثل هذا السّفر.

.....

أضناني التّعب وأخذ منّي كلّ مأخذ وسرى الإرهاق في جسمي النّحيف المنهك وأنا على هذه الحال منذ طلوع الفجر إلى وقت الظّهيرة حين استقرّت الشّمس في كبد السّماء مرسلة أشعّتها المحرقة في خيوط عموديّة.

ها أنا أسير مترجّلا في طريق ملتويّة غير معبّدة: طريق وعرة طويلة لا أفق لهاكأنّها نفق مظلم أو حيّة رقطاء.

أسير سير الهائم على وجه الأرض دون متاع أو زاد ولو شربة ماء تطفئ ظمئي وتسكن وجعي وتبعث فيّ الأمل في النّجاة من الهلاك للوصول إلى هدفي المنشود ولكن أيّ هدف أقصد؟ لست أدري!حقّا لست أدري! ودون دوران أصرّح بكلّ عفويّة:

- أنا أجهل وجهتي ومقصدي وأبحث عمّن يرشدني ويدلّني على مأربي وله جزيل الشّكر والثّناء.لم أتوقّف عن السيّر ولو لحظة زمنيّة قصيرة رغم الكلل والملل والمعاناة بل عزمت على مواصلة الدّربكلّفني ذلك ما كلّفني.

وبينما أنا على هذه الصّفة من الترقّب والانتظار والخوف والتردّد والألم والأمل إذ طلعت عليّ من بعيد قرية صغيرة نائية يمتدّ بنيانها على سفح هضبة لا شجر فيها ولا دواب وتتوسّطها صومعة مسجد تستقطب أنظار المارّين من مسافة بعيدة.

انبعث فيّ الأمل من جديد وحمدت الله على كلّ حال وشعرت بالأمن وأسرعت الخطى للوصول إلى هدفي المنشود وهو معلوم لديّ هذه المرّة وعزمت على التوقّف بهذه القرية لنيل نصيب من الرّاحة وقسط من الزّاد والماء قبل متابعة دربي.

قلت في نفسي وأنا أهرول نحو السّفح:

- أنتهز هذه الفرصة لأداء صلاتي الظّهر والعصر ثمّ أواصل رحلتي على بركة الله.

واتّجهت لتوّي نحو مسجد القرية ولمّا وصلته وجدت بابا متداعيا للسّقوط مفتوحا على مصراعيه.

حملت قدماي جسمي المنهوك وقادته نحو الميضة لأقوم بواجب الطّهارة ثمّ وجدت نفسي في المصلّى.

وبمجّرد دخولي انزويت إلى ركن من أركانه فصلّيت الظّهر فنّا ثمّ أويت إلى سارية من سواريه المنتصبة في أطراف بيت الصّلاة وإذا بها أعمدة خشبية ينخرها السّوس من أسفل الى أعلى تحمل أثقالها وهي تستغيث وترجو رحمة خالقها وتسبّح بحمد ربّها.

أسندت ظهري إلى عمود وحاولت أن تكون جلستي مريحة لأنال قسطا من الرّاحة بعد هذا إلانهاك الشّديد التي هدّ قواي منذ انبلاج فجر هذا اليوم.

ولمّا شعرت بقليل من الرّاحة وأحسست ببعض الارتيــاح حملقت وتأمّلت فيما حولي فإذا بي أجد نفسي داخل مسجد صغير في مساحته،أطرافه غير مترامية، بناؤه عـتيق،

سواريه لا تتجاوز أصابع اليدين، سقفه قليل الارتفاع، بساطه من العسف صنعته أيد ماهرة، فراشه بسيط، محرابه ضيّق دون نقش أو تزويق يلفت الانتباه رسمت في أعلاه آية قرآنية بحروف غليظة وخطّ يكاد لا يفهم هذا نصّها:

"إنّ الصّلاة كانت على المؤمنين كتابا موقوتا."

ثمّ أبصرت قدّامي فرأيت رجلا وقورا علامات الهيبة والتّقوى تعلو محيّاه يتوسّط المحراب ويتربّع بين كوكبة من الرّجال هيئتهم بسيطة ولباسهم زهيد دالّ على أنّهم أهل قرية فلاحيّة تعيش على ما ينتجه الزّرع ويدرّه الضّرع، سواعدهم المتينة وعضلاتهم القوّية تساعدهم على حراثة الأرض وزراعة الحبّ وحصاد المحصول وتعينهم أيضا على رعي الماشيّة ودرّ ألبانها وجزّ أصوافها، وجوههم السّمراء الشّاحبة ونظراتهم الحادّة الثّاقبة تفصح عن حبّهم لأرضهم وتشبّثهم بها لأنّ فيها رزقهم ورزق أهاليهم.

وأيقنت أنّي بين أناس يعيشون على الفطرة والبساطة بساطة لا تتطّلب كماليات أو محسّنات أو شهوات أو أهواء أو مغريات, إنّها حياة القرية الهادئة التي تشابه إلى حدّ كبير حياة

الباديّة وليس لها أيّ وجه شبه بحياة الحاضرة المتميّزة بضجيجها وضوضائها وحركتها الدائبة التي لا تنقطع لا بالليل ولا بالنّهار.

استأنست مجلسي وقلت في نفسي:

- إنّها مناسبة رائعة لا تخطر على بالي من قبل سأضرب عصفورين بحجر واحد:أروّح عن نفسي عناء السّفر وآخذ نصيبا من الرّاحة لجسدي المنهك، وأجدّد إيماني بسماع موعظة من هذا الشّيخ الوقور.

وشعرت بأن كلّ العيون تراقبني وكأنها تسائلني من أكون؟ وما أصلي وفصلي؟ وما الّتي جاء بي في وقت الظّهيرة وفي فصل صيف والكلّ يهرب من أشعة الشّمس المحرقة ولواضها؟

ولم أستغرب هذا الموقف لأنّي كنت الغريب الوحيد الّتي يدخل على جماعة تعرف نسبها وحسبها بأدقّ التّفاصيل...

ولم أبال بنظراتهم وبقيت على حالي أسمع وأرى وأراقب وأترصّد ما سيجري.

وساد صمت لبرهة زمنيّة وجيزة سرعان ما قطعه صوت الشّيخ الوقور ليشّد انتباه سامعيه فقال:

- نواصل حديثنا فأنصتوا يرحمكم الله واسمعوا وعوا فما قلناه سلفا وما سنقوله لاحقا هامّ لأنّ هذا الأمر واجب على كلّ نفر منّا إن كنّا نؤمن بالله واليوم الآخر ونطمع في شفاعة نبيّه الكريم.

ثمّ التفت إلى أحدهم وتوجّه إليه بالسّؤال:

- ما هو موضوع حديثنا يا عمّ؟

وكان ردّه سريعا دون تلعثم:

- كنّا نتحدّث عن الزّكاة والصّدقة يا سيّدي.
- أنعم الله عليك وثبّتك عند سؤال الملكين،إلاّ أنّي أستغرب من موقف اللاّمبالاة لكثير من السّامعين للموعظة ولا يطبّقون، فموسم الحصاد قد تمّ وفات ونحن على أبواب فصل الخريف, فما بال قوم لم يخرجوا زكاتهم على قمحهم وشعيرهم وخرفانهم وقد قال الحقّ تبارك وتعالى في كتابه العزيز:

"وآتوا حقّه يوم حصاده".

لقد فصّلنا القول في خصوص الزّكاة وبيّنا أنّ كلّ حصاد من قمح أو شعير وأنّ كلّ قطيع لخرفان بلغ حدّ النّصاب

وجبت عليه الزّكاة وأنّ كلّ متهاون أو شحيح لا يرغب في دفع الزّكاة في آجالها المحدّدة وجب عليه عقاب الله إن عاجلا أو آجلا.

وأنا أحذّركم من أليم عذابه وشديد عقابه فاتّقوا الله والتزموا حدوده قبل فوت الأوان.

ثمّ أدار الشّيخ وجهه إلى الرّجل ذاته وخاطبه قائلا:

- فهل أعطيت زكاة حصادك يا عمّ لهذا الموسم؟ ولم هذا التلكؤ في تنفيذ أمر من أوامر الله؟

أجاب الرّجل على الفور متلعثما:

- سأعطيها يا سيدي الشّيخ سأعطيها.
- متى ؟ ولم هذا التباطؤ؟
- في القريب العاجل قبل غروب شمس هذا اليوم ستكون أكياس القمح والشّعير في المكان الذّي اتّفقنا عليه بحول الله لن أخلف وعدي هذه المرّة يا سيدي الشّيخ.
- هل تعلم ويعلم غيرك أنّ كلّ من تهرّب من واجب أوجبه الله كان عقابه شديدا يوم القيامة "يوم لا ينفع مال ولا بنون إلاّ من أتى الله بقلب سليم" ؟

إنّي أحتّر مرّة أخرى الّذين يبخلون بأموالهم ويجهلون أحكام الشّرع ويصرّون على المعصيّة أنّ عاقبتهم ستكون وخيمة.

ثمّ التفت يسرة مخاطبا سامعا آخر:

- وأنت يا خال لم لم تخرج زكاة ماشيتك؟ أنسيت الاتفاق أم تتناساه؟

ارتعدت فرائص الرّجل وأجاب بشيء من الخوف والرّيبة:

- نسيت علام كان اتفاقنا يا سيدي الشّيخ أخروفا أجلبه إلى الزّريبة أم خروفين؟

واكفهرّ وجه الشيخ وظهرت عليه علامات التشنّج والغضب وكشرّ عن أنيابه وخاطب الرّجل بحدّة:

- ليس هذا ما اتّفقنا عليه يا خال فإن تملكك النّسيان والجهل فها أنا مرّة أخرى أشهد الجميع على ما أقول وأذكرّك بمقدارك:كبشان أملحان أقرنان، أفهمت يا خال؟ فمتى ستحضرهما؟
- اليوم يا سيّدي الشّيخ، اليوم بعد الظّهيرة دون تأخير في المكان المحدّد وفي الوقت المضبوط.

- حسنا تفعل وأريد أن أذكرّ في هذا المقام الّذين ينتفعون بالموعظة يوميّا ولكنهم لا يعملون بها أنّ هذا الأمر ينساب على الجميع أريد حسم الأمر هذا اليوم دون تأخير أو مماطلةمن أحد وإلاّ فانتظروا نذير الشؤم الّذي سيلحق بالجميع دون استثناء.

وتوقّف الشّيخ عن الكلام والتّهـديد والوعيـد وسـاد صمت رهيب قطـعه أحـد المجتمعين حول شيخهم الوقور.

وأخاله أنّه الأجرأ فيهم فقال متأدّبا مع شيخه:

-هل يسمح لي سيدي أن أعطي مقداري إلى بعض جيراني فهم في حالة فقر مدقع وخصاصة مقيتة؟

اكفهرّ وجه الشيخ فنظر إليه نظرة شزراء وكان ردّه عنيفا:

- ألم أشرح لك ولغيرك أحكام الزّكاة والصّدقة؟ ألم أبيّن لك ولغيرك من يستحقّها وينتفع بها؟ ألم أكرّر على مسامعك ومسـامع غيـرك القاعدة الفقهيّة التـي تقول:" الأقربون أولى بالمعروف"؟ ألست قريبا من أقاربي تربطني بك صلة مصاهرة منذ سنوات خلت؟ أتتنكرّ لهذه الرّابطة المتينة الّتي نصّ عليها الشّرع؟ إذن

فمن هو أولى بالمــعروف دوني؟أرجوك وللمرّة الألف لحفظ هذه المقولة واعمل بها وأعنّي بالسّكوت إن تفضّلــت وتكرّمت!

وسكت الرّجل وسكت الجميع بعد أن أمطرهم بوابل من الأسئلة الإنكارية وساد من جديد أرجاء المسجد سكون عميق.

وتنحيّت قليلا إلى السّارية ودنوت من الحلقة وتفرّست في وجه الشّيخ الوقور وتأمّلته وأعدت النّظر فيه مرّة ومرّة وعادت بي الذّاكرة، ذاكرتي لا تخونني في كثير من الأحوال.

لا أدّعي أنّي خبير في فنّ الفراسة فكم من شخص ألقاه او يلقاني بعد فترة من الزّمن قد تطول وقد تقصر أعرفه وأعرّفه بنفسي فأذكّره أو يذكرّني بالظّروف التّي التقينا فيها وهذا الشّيخ الجليل واحد منهم.

بقيت في حيرة وتردّد في أوّل الأمر ولكن سرعان ما كبحت جماح نفسي وأسررتها:

- هذا الشيخ الوقور أعرفه ويعرفني وعاشرته وعاشرني وخاطبته وخاطبني وحاورته وحاورني وجالسته وجالسني ونصحته ونصحني، صحيح مظهره الخارجي

ألبسه حلّة من الهيبة:لحيته كثّة طويلة، عمامته بيضاء ناصعة، سبحته غليظة تجول حبّاتها بين أصابعه، جبّته فضفاضة مزركشة،هيئته هيئة العارف بأمور الدّين والدّنيا.

وبينما نحن على هذه الحال إذ أذّن لصلاة العصر فقام الشّيخ وأمّ المصلّين واصطفّت الجماعة واصطففت معها وصليّت كما صلّوا

وانفضّ المجلس وتعمّدت الخروج متأخرّا لأنّي عزمت على أن أعرّفه بنفسي. وخلا الجوّ بيني وبينه فتقدّمت نحوه واندفعت صوبه كالسّهم فأمسكت بتلابيبه وقبضت على لحيته في جرأة غير معهودة، أقدمت على هذا الصّنيع لأنّ الصّداقة التّي كانت تربطني به صداقة وديّة لا تعرف معنى للمجاملة فقد كنت أمازحه وكان يمازحني وأستسيغ طبعه ويستسيغ طبعي.

وفاجأته قائلا:

- ألم تعرفني يا سيّدي الشّيخ؟ أنسيت عشرتنا الطّويلة؟ صحيح الأيّام فرّقت بيننا ولكنّي لا أنسى أبدا صداقتنا الّتي جمعت بيننا زمن الفتوّة والشّباب.حقّا إنّها صدفة

سعيدة نستحضر فيها ذكريات لا تنسى بحلوها ومرّها وغثّها وسمينها.

فاتحته بهذا الكلام وباغته بتلقائيتي فاستغرب موقفي في بداية الأمر ولكنّه سرعان ما تداركه، تفرّس في وجهي وتصفّحه يمنة ويسرة وفجأة ودون سابق إعلام أو استئذان ضمّني بقوّة إلى صدره ورحّب بي أشدّ ترحاب ودعاني إلى استضافة في بيته وتفنّق بالكلام وانطلق لسانه هاشّا باشّا قائلا:

- مرحبا بك أيّها الصّديق العزيز، نزلت أهلا وحللت سهلا.إنّها حقّا مناسبة كريمة تجمعني بك وربّ صدفة خير من ألف ميعاد، وكيف أنسى صديقا أكنّ له المحبّة والتّقدير والوفاء؟وهل أمحو من ذاكرتي عشرة انبنت على الخير والحقّ والإخلاص؟ أنت اليوم في ضيافتي ومرحبا بك في بيتك وبين أهلك.

لم أترك له مجالا لمواصلة حديثه فشكرته جزيل الشّكر على ترحابه واعتذرت له ولكنّني عزمت على نصحه وإرشاده وقلت له مودّعا:

- أمامي طريق شاقّة وعرة أسلكها وهدف منشود أريد بلوغه.

فالمعذرة أيّها "الصديق العزيز" على عدم تلبية الدّعوة وأسأل الله أن يجمعنا على الخير في يوم من أيّام الله، إلاّ أنّ كلمات قليلة تختلج صدري أريد أن أبوح بها وأرغب منك يا "شيخنا المهيب" أن تسمعها وتعيها،وأنا عهدي بك أنّك تقبل النّصيحة وتعمل بها: اتّق الله في نفسك، واتّق الله في عباد الله.

والويل لمن اشترى بآيات الله ثمنا قليلا!

بقي "صديقي المحترم" في وجوم وذهول تامّين عند سماعه لهذه الكلمات: تلعثم لسانه وخارت عزائمه وفقد جرأته وخانته فصاحته وغاب عنه فقهه.

وسكتنا عن الكلام المباح ثمّ افترقنا.

.....

شعرت براحة البال وسكينة ونشوة الضّمير وانشراح الصّدر لأني أحسست أنّ آخر الكلمات التّي صدرت عنّي وأنا أودّع "صديقي المبجّل" ستريح باله وتسكن نفسه وتنشي ضميره وتشرح صدره.

وضمّني فراشي إليه من جديد وتملّكني نوم عميق وقضيت ليلة من أمتع اللّيالي غير مبال بقيضها وحرّها.

في 16 جمادى الاولى 1426 هـ

الموافق 2005/06/23 مـ

جريمة ضدّ مجهول

إنّها ليلة مظمة قليلة المطر والرّياح ولكنّها كثيرة البرودة والصّقيع, ينزل فيها المطر رذاذا وتهبّ فيها رياح ليّنة عليلة.

إنّها ليلة شتويّة رسمت في مخيّلتي هواجس وأحاسيس وأفكارا فيما تبقّى من العمر وخطّت خطوطا عميقة في عقلي ووجداني لم أنسها ولا أنساها مهما تقلبّت الأحوال والظّ روف.

في هذه الّيلة الموحشة أصابني أرق نجم عنه قلق فانسللت من فراشي الدّافئ وتركت الزّوج المصون يغرق في سبات عميق من شدّة وإعياء نتيجة إجهاد يومّي وعمل منزليّ رتيب.

وقرّرت ألاّ أزعج أحدا ليشاركني أرقي وقلقي فالجميع نيام الزّوج والأبناء وتنتظرهم مشاغل الحياة ليوم جديد متجدّد.

انسللت من سريري كالضبّ من جحره وفتحت باب غرفة النّوم بهدوء وتوجّهت نحو غرفة الاستقبال وهممت بالضّغط على زرّ النّور الكهربائي ولكنّني لم أفعل وفضّلت الظّلمة الدّامسة على النّور السّاطع.

إنّها غرفة فسيحة تسكنها ظلمة قاتمة، أطرافها مترامية، بابها مفتوح على مصراعيه، زرابيها مبثوثة، أرائكها وثيرة مصفوفة، أبساطها ناعمة، ستائرها مزركشة، نوافذها موصدة لا تترك للقرّ ولا للحرّ منفذا،شرفتها مطلّة على الشّارع الرّئيس.

و كعادتي استرخيت على أريكة قرب جهاز الهاتف لعلّه يؤانسني ويذهب عنيّ وحشتي ويطرد عن نفسي أرقها وقلقها.

لطالما تعاملت مع هذا الجهاز الصّغير في حجمه والعظيم في خدماته تارة بجديّة إن كانت المكالمة جادّة وطورا بتهوّر إن كانت المكالمة سخيفة تأخذ من وقتي ولا ترحمني.

لم أشعر باسترخاء بدنيّ أو راحة على الرّغم من أنّ أريكتي الوثيرة النّي حضنتني بثّت في كامل جسدي قليلا من الدّفء والحرارة.

وبغتة أبصرت بصيصا من نور منبثق من شرفة القاعة ينعكس على قطرات من الطلّ، تسّللت من باب الشّرفة دون استئذان.

هذا البريق من النّور بعث فيّ شيئا من الأمل وإحساسا بالسّكينة ودفعني إلى التّفكير بجديّة في التخلّص من قلقي والتغلّب على هذا الجوّ الخانق فخاطبت نفسي قائلا:

- هذا نور أمل وسكن فلم لا أفتح باب الشّرفة لأستنشق نسيما عليلا يزيل عنّي كآبتي وضجري؟

وتردّدت كثيرا في فتح باب الشّرفة فالجوّ داخل القاعة يميل إلى البرودة ولاشكّ أنّه أبرد خارجها.ولا عجب فإنّ الفصل شتاء وهو فصل تميّزه برودة طقسه ونزول مطره طلّه و وابله وقلّة رياحه.

فعلا، إنّها ليلة هادئة فلا أسمع فيها هبوبا للرّيح ولا خشخشة لأوراق الأشجار ولا نباحا للكلاب السّائبة ولا مواء للقطط الهائمة على وجهها ولا خريرا للمطر النّازل، ولكنّها ليلة قاتمة دامسة موحشة ثقيلة على النّفس.

وأيقنت أنّ هذا النّور المتسلل من باب الشّرفة هو نور منبعث من الفانوس البلدي وأنّ هذه القطرات هي قطرات الطلّ المتساقط في هذه اللّيلة النّكناء.

وتغلّبت على تردّدي وقرّرت فتح باب الشّرفة كلّفني ذلك ما كلفّني رغم هاجس الخوف من البرد الّتي ربّما سينخر عظامي والزّكام الذي سيتهدّدني وأنا رجل داهمته الكهولة، ولكنّي في آخر الأمر عزمت على فتحه بالرّغم من كلّ التبّعات النّي تنتظرني وتتوعّدني، فجمعت قوايا وخاطبت نفسي:

- أنت ما زلت في عنفوان كهولتك فلم هذا الخوف والجبن؟ لماذا تنعم أنت بالدّفء والحرارة والنّعومة وآخرون كثر في هذا الوقت بالذّات يكدحون في غسق اللّيل وهزيعه، يلسعهم البرد وتلفحهم الرّيح ولا يتذمّرون؟ إنّهم يتعذّبون ليتنّعم الآخرون، وهل أنت نفس بشريّة تعيش في كوكب أرضي أم أنت كائن قادم من المرّيخ أو زحل؟ وأين هي أدميتك؟ وأين هي إنسانيتك؟ فيا أيّها الإنسان العاقل أفق من غفوتك، وتحلّ بالصّبر والشّجاعة. الصّبر والشّجاعة خصلتان نبيلتان تتردّدان على لسانك في جلّ المقام والمقال وتحثّ من تعرف ومن لا تعرف على التحلّي

بهما فلم لا تلزم نفسك بهما؟ الأمر في غاية البساطة والسّهولة: افتح قفل باب الشّرفة لاستنشاق نسيمات عليلة لتطرد عنك الكلل والملل والقلق والأرق.

ولم أترك لنفسي الفرصة لتقريعي وتأنيبي ولومي فقد أخذت منّي نصيبا بالقدر المستحقّ الكافي. وقرّرت هذه المرّة بل أصررت على فتح القفل وأدرت المفتاح يمنة، لا بل يسرة فانفتح الباب ولفح وجهي هواء عليل ولمست جلدي قطرات الطلّ الزّلال وأحسست بانتعاشة تلامس روحي ونشوة تسري في كامل جسمي.

وتنفّست الصّعداء واستنشقت نسمات الحريّة من أعماقي وكأنّي عصفور حزين طار من قفصه الحديديّ وأوى الى عشّه وقد بللّه المطر.

وواصل الطلّ نزوله وظلّ يتساقط على شعري وينساب على وجهي ورقبتي ويديّ ولباسي وأنا لا أبالي، لا بل أبالي بحّباته المتناثرة هنا وهناك فألمظها بلساني إذا وقعت على شفتيّ وأتلّذذ طعمها وأطلق سبيلها إن كانت بعيدة المنال.

وشعرت أنّ كابوس الكآبة ولبوس القلق ورداء الأرق خلعت عنّي بغير رجعة، وأحسست أنّي صرت شابّا في عنفوان شبابه قادرا على حمل الأثقال وتخطّي الصّعاب.

ودبّت النّماء في عروقي دبيب النّمل فقويت عضلاتي واحتدّ نظري وانشرح صدري وانفتحت بصيرتي وعادت إليّ فتوّتي التّي غابت عنيّ طيلة سنين وسنين خلت.

خطوت خطوتين إلى الأمام وأمسكت قضبان الشّرفة الحديديّة وكدت أطير في هذا الجوّ الفسيح أمامي رغم عتمة اللّيل وبرودة الطّقس وتساقط الرّذاذ.

وشعرت أنّي حرّ حرّ بكلّ ما للكلمة من معنى، طليق طليق من كلّ القيود والتعهّدات والالتزامات والضّوابط والحدود والقوانين والضّغوط وما أكثرها في عصر الحريّة وعصر التّحرير وما أكثر تشعّبها وتفرّعها وتنوّعها في عصر الحضارة وعصر المدنيّة وعصر التقدّم : فهذه ضغوط نفسيّة وعائليّة وتلك مهنيّة واجتماعيّة وأخرى أخلاقيّة واقتصاديّة.

وتساءلت رافعا رأسي إلى السّماء متأمّلا نجومها والطلّ يعاود نزوله:

- هل أنّ الإنسان في العصور الأولى يعرف هذه المصطلحات مثلما نعرفها نحن في عصرنا الّتي أصطلح على تسميته "بعصر العولمة"؟ وهل حقّا هي قضايا حقيقيّة يعيشها "إنسان العولمة" وتستوجب علاجا من المختصّين في علم النّفس وعلم الاجتماع وعلم الأخلاق وعلم الاقتصاد...للحدّ منها أو القضاء عليها؟ أم هي مشاكل وهميّة افتعلها واختلقها "إنسان التمدّن" وصدّق بها فسيطرت على عقله وأصبح فريسة وعبدا لها؟...

وتوقّفت عن تسؤلاتي لأنّها ستقودني من جديد إلى دوّامة الضّغوطات بجميع أشكالها وما أشدّها على "إنسان التحضّر", ولمت نفسي على هذا التّفكير واعتبرته تفكيرا عقيما لا يجدي نفعا.

وتجاذبني القلق والأرق من جديد, فهل أترك لهما المجال فسيحا هذه المرّة لتعشّش في عقلي وتتعلّق بتلابيبه فأغدو أسيرا لهما ولغيرها من القيود والحدود والضّغوط؟

أطرقت لحظة زمنيّة استرجعت فيها أنفاسي وأغمضت عينيّ وتوقّفت عن التّفكير.

وبينما أنا على هذا الحال إذ باغتني هدير سيّارة قادمة من الشّارع الكبير مصوّبة وجهتها نحو محطّة البنزين.

إنّها سيّارة من الطّراز الفخم، تطوي الأرض طيّا في سرعة جنونيّة، وفجأة يكبح سائقها جماحها وتفتح أبوابها وينسلّ منها نفر قليل، ثلاثة بالتّحديد، وجوههم ملثّمة وأبدانهم ضخمة وألبستهم سوداء سوادالليل.

تقدّم أحدهم نحو مغازة المحطة حيث كان يقبع العامل وأشار إليه بتزويد السيّارة بالبنزين اللاّزم.

وماهي إلاّ لحظات معدودات حتّى انفتح باب المعّازة وخرج لتوّه كهل ببزّته الرّماديةالدّاكنة وكعادته اتّجه نحو آلة الضخّ فأمسكها وضغط عليها ضغطا خفيفا فصعد البنزين وانساب في خزّان السيّارة بيسر.

وما كاد ينهي عمله حتّى أشار عليه أحد الملثّمين بنزع كيسه الجلديّ المتدلّى في عنقه والجامع للأوراق الماليّة والقطع النقديّة الّتي يدفعها إليه الزّبائن.

وأبصرت بأمّ عينّي العامل المسكين يتأخّر إلى الوراء متمسّكا بكيسه رافضا تسليمه لأيّهم، عندها هجم عليه أحدهم ونزع الكيس من عنقه عنوة.

واندفع نحوه ثلاثتهم واقتادوه إلى داخل المغازة وانغلق الباب وراءهم.

كنت أرقب هذا المشهد المريع عن بعد وبقيت مدهوشا لا أستطيع حراكا أو تفوّها بكلمة واحدة.

و خانتني جرأتي للدّفاع عن هذا المسكين الذّي لاحول له ولا قوّة والذّي تربطني به معرفة سطحيّة، فقد دأب هذا الرّجل على هذا العمل منذ سنين وسنين تارة بالليّل وتارة بالنّهار ليوفّر قوته وقوت عياله.

ولكن ما حيلتي في وقت أرخى الليّل سدوله؟ وكيف أتصرّف مع نفر تهدّ أجسامهم الجبال هدّا؟

وكان لي إلاّ أذّي فوّضت الأمر إلى الله مرتقبا قضاءه وحكمه.

مرّت برهة زمنيّة ثقيلة على إثـرها سمعت طلقا ناريّا واحدا، ثمّ فتح بـاب المغازة وخرج الملثّمون الثّلاثة وامتطوا سيارتهم

بسرعة البرق ودفع السائق بالبيّارة في الطّريق العــام فالتهمته التهاما وتوقّف المشهد،وعاد اللّيل إلى سكونه،والنّسيم العليل إلى هبوبه، والطلّ الخفيف إلى نزوله.

إنّها لحظة حزن وأسى وخوف ورجاء: الدّهشة تتملّكني والحيرة تغالبني والقلق يضمّني والأرق يصارعني.

يا لهول ما رأيت وما سمعت! هل ارتكبت في هذه اللّيلة المظلمة الموحشة جريمة قتل؟ وماذا يعني إطلاق النّار يا ترى؟ هل أعتبر نفسي شاهدا على هذه الجريمة إن كانت هناك جريمة؟

وهل تمّ فعلا اغتيال ذاك العامل المسكين؟ وما هو الجرم الّذي اقترفه ليصبح في عداد القتلى الأبرياء؟ لعلّه مازال يسبح في دمائه ولم يوافه الأجل المحتوم؟ أ أسكت عن جريمة ارتكبها حمقى ومجانين في حقّ رجل بريء يكدح باللّيل والنّهار من أجل توفير قوته وقوت عياله؟ أهيّ حقّا جريمة بالمعنى الدّقيق للكلمة؟ أهيّ محاولة قتل لسرقة أموال؟ أم هو تهديد فقط بإطلاق النّار في الفضاء؟ أ أخبر رجال الأمن بما جرى؟ أ أزعجهم فيزعجونني ويزعجون أهلي وجيراني في هذا الوقت المتأخّر من اللّيل؟ وماذا أقول لهم لن أخبرتهم بما شاهدت وسمعت؟ هل شاهدت حقّا مرتكبي الجريمة في حالة تلبّس كما يقولون؟ هل سمعت طلقا

ناريّا أودى بحياة العامل المسكين؟ أ إخباري تكشّف وتدخّل في أمور لا تعنيني وربّما ألقى مالا يرضيني؟ أ أنا حاكم تحقيق أم خبير بشؤون القضاء أم شرطيّ لضبط الجناة؟ وماذا تفيد السّرعة أو التسرّع في هذه الحال؟ أليس من الأنسب الترقّب والانتظار إلى طلوع الفجر وربّما إلى شروق الشّمس لتقصّي الحقيقة؟ وهل الحقيقة تعنيني من قريب أو من بعيد؟

تراكمت عليّ التساؤلات من كلّ حدب وصوب واحترت في الإجـــابة عنها ولم ألزم نفسي بالإجـــابة عنها, وأشهد وأقرّ وأعترف بكـــلّ صراحة وجلاء أنّ قلقي وأرقـــي تغلّبا عـــلى تفكيري وإرادتي، ازدادت حيرتي وتفاقم وجلي وانهارت أعصـــابي وكدت أسقط مغشـــيّا عليّ وســـرعان ما تماسكت فخطوت إلى الوراء خطوات متثاقلة وأنا في ذهول تـــامّ وأســـرعت فـغلّقت باب الشّرفة لتوّي وأدرت المفتاح مرّة ومرّة ومرّة.

وارتمـــيت في أحضـــان أريكتي وجهاز الهاتف يرمقني وكأنّه يأمرني باستعماله لإخبار رجال الأمن بما رأيـــت وسمعت.

ولكن ماذا رأيت وماذا سمعـت؟ أنا لا أصدّق ما رأيت وما سمعت أهي أضغاث أحلام أم هي حقيقة؟ وأيّ حقـيقـة هـذه؟

أصرّح أذّي في هذه اللّيلة الدّكناء أضعـف الضّعفاء وأجبـن الجبناء وأشقى الأشقياء.

انـزويت إلى فراشي كالطّير المذعور وكأنّ شيئا لم يكن ولم يحدث وتركت الأمر للأقدار تفعل مـاتشـاء وتريد.

ها أنـا في فراشي ألتوي وأتقلّب تارة على شقّي الأيمن وأخرى على شقّي الأيسر: عينان مفتوحتـان ذاهلتان، لسـان أخـرس، قلب واجف، فرائص مرتعدة، جسم منهك وعقل شارد.

وقد تملّكني الذّعر والفزع والرّجاء، ودون شعور منّي أخذتني غفوة سرعان ما قطعها دويّ مزعج منطلق من سيّارة بل سيّارتين على أغلب الظنّ، فانتفضت من فراشي مذعورا وهرولت نحو الشّرفة أستجلي الأمر، فإذا بي أشاهد سيّارة أولى للشّرطة تليها سيّارة ثانيّة للإسعاف ينتهي بهما المطاف إلى محطّة البنزين.

وإذا بي أرى رجالا من الشّرطة ورجالا من الإسعاف يداهمون مغازة المحطّة ويندفعون داخلها.

وفي لحظات معدودات خرج جميعهم من المغازة حاملين بين أيديهم العامل المسكين الّتي لا يحرّك ساكنا وكأنّه جثّة هامدة.

وتقدّم أحدهم ففتح الباب الخلفي لسيّارة الإسعاف ودسّوه داخلها.

وانطلقت السّيارتان كالسّهم تدوّيان دويّا هائلا.

ومع مطلع الفجر تجمهر المارّة حول محطة البنزين وكثرت الجلبة واختلطت الأصوات وبلغ نعي العامل المسكين إلى الجمهور المحتشد كما بلغني فنزل على الجميع كالصّاعقة وتسمّرت في الشّرفة كالصنم مذهولا مخذولا مهزوزا أنصت بشيء من الوعي إلى ضميري يخاطبني:

- مات رحمه الله، مات شهيدا في سبيل الحصول على لقمة عيش أهله زهقت روحه البريئة ولم يجرم في حقّ أحد، وكم هي الأرواح البريئة التي تزهق في هذا العصر عصر التمدّن والتحضّر والتقدّم بحقّ وبغير حقّ؟ وكم هي الدّماء الذّي تسفك في وضوح النّهار أو في ظلمة اللّيل والنّاس نيام؟ وكم هي الجرائم التي ترتكب في حقّ الآخرين أفرادا كانوا أم شعوبا وقبائل؟ فيا أيّها الإنسان

المثقّف والمتمدّن والمتحضّر سؤالي لك ولبني جلدتك: لم آثرت الصّمت عن الكلام؟ ألست شريكا في هذا الجرم؟ أتتشرّف بالانتساب إلى آدم عليه السّلام؟

وأجبت ضميري بعقل حائر وقلب واجف ودمع منهمر:

يا ضميري الحيّ أنت على حقّ، أنهار من الدّماء تسفك، وأرواح بريئة تزهق وجرائم خطيرة تقترف باللّيل والنّهاروأخرى تحبك في السرّ والعلن باسم "الحريّة" و"الديمقراطية" و"التنوير" في حقّ الأفراد والشعوب والقبائل وعلى مرأى ومسمع بني آدم كلّ بني آدم منذ أن قتل هابيل قابيل إلى يوم النّاس هذا، يوم تفنّن فيه "الإنسان" في حبك الجرائم دون أن يترك أثرا لها ويوم تنوّعت فيه آلات القتل والفتك والاغتيال ويوم تعدّدت فيه وسائل الثّقافة والإعلام والتّرفيه لتنوير العقول وبناء حضارة المعرفة وإرساء التقدّم والرقيّ لإسعاد البشريّة جمعاء؟

يا ضميري الحيّ لا تزدني قلقا على قلقي ومعاناة على معاناتي وحيرة على حيرتي.

وما أستطيع أن أصرّح به هو أمر واحد: هذه الجريمة النّكراء ارتكبت اليوم ستلحق بالعديد من الجرائم وستسجّل في دفتر من

دفاتر رجال الأمن وفي صفحة من صفحاتها تحت عنوان: "جريمة ضدّ مجهول" والبحث جار.

في 17 جمادى الاولى 1426هـ

الموافق 2005/06/24 مـ

صراخ و ثغاء

أنا شيخ هرم عمّرت مائة عام أو تزيد، ما زلت على العهد أعيش في كوخي الفاخر في نظري والحقير في نظرهم.

ما زلت على العهد لأنّي متشبّث بأرضي إنّها أرض آبائي وأجدادي أعضّ عليها بالنّواجذ وأذود عنها بكلّ ما أوتيت من قوّة وجلد، وهذه منساتي أتوكأ عليها وأهشّ بها على عنزتي وأطارد بها الأعداء.

فارقت عجوزي الحياة منذ بضع سنين وواريتها التّراب هنا على مقربة من كوخي فهي تؤنسني في وحشتي وتبعد عنّي شبح الغمّ وتواسيني على نوائب الدّهر.

أمّا الذرّية، فأحدهم هاجر من دون رجعة بحثا عن العمل والقوت والثّاني جنّده الاستعمار بقوّة السّلاح وها أنا ما زلت أنتظر عودتهما بفارغ الصّبر، والثّالث وافته المنيّة وهو في ريعان شبابه فعجّل بمنيّة أمّه والتحقت به في أيّام معدودات لأنّها لم تستطع صبرا على فراقه، فقد كان عزاؤنا في كلّ شيء وساعدنا القوي في تصريف شؤوننا والذّائد عن حمانا و الرّاعي لقطيع عنزتنا وخرفاننا.

وبعد غياب الولدين وفقد الأهل والمعين اضطررت إلى بيع الخرفان الواحد تلو الآخر لسدّ الرّمق ومغالبة شظف العيش.

وعلى الرّغم من ويلات السّنين وقسوة الطّبيعة ها أنا أواجه مصاعب الحياة أنا وعنزتي التّي آليت على نفسي ألاّ أفرّط فيها كلّفني ذلك ما كلّفني.

وكيف أفرّط فيها وهي التّي تسقيني لبنا سائغا شرابه وتؤنسني بصوتها الرّخيم من طلوع الفجر إلى غروب الشّمس, وتنام حذوي داخل كوخي أو خارجه؟

حقّا إنّهـا كلّ ما أملك من متاع الدّنيا ولا حاجة لي في أن أملك غيرها، ها هي تلهمني الصّبر وتجدّد عزمي وتكسبـني القوّة وتحمل همومي وأحزاني، تبكي حين أبكي وكم هي دموعها المنهمرة التّي تـروي بها أرضنا! وتشـاركني فرحي حيـن أفرح إن كان للـفرح معنى! وتبتسـم حين أبتسم وتثغو حين أصرخ.

إذا أصابني جوع أو عطش أمسكت مخلاتي وأخرجت منها بعض الطّعام لسدّ رمقي وإطفاء ظمئي، وكانت عنزتي المدلّلة تقاسمني رغيفي من خبز الشّعير اليابس,أبلّل القليل منه وأقدّمه لها فتلتهمه التهاما وأقتات فتاته, ثمّ أحثو قليلا من ماء

العين في مدّي فتتجرّعه على عجل وأكرّر الأمر ثلاثا أو أربعا إلى حدّ إروائها وبعدها أشرب حثالته على مهل.

عنزتي الوديعة لا تفارقنيأنا أحبّها وهي تحبّني وأدلّلها وتدلّلني لذا قرّرت ألاّ أتخلّى عنها في أيسر الظّروف أو أحلكها وعزمت على أن تكون حياتها قبل حياتي ولا يفرّقنا إلاّ الدّهر.

قطع هدوء كوخي حثيث لبعض جيراني وقطعانهم بحثا عن القوت والماء لهم ولشياههم وأعنازهم فتيقّنت من انبلاج الفجر وصوّبت نظري من إحدى فوهات كوخي وما أكثرها، لأستطلع أمرهم فإذا هم كعادتهم ينسلّون من بيوتهم الّتي صنعوها من الطّين اللاّزب وعيدان شجر الصّنوبر، ويتهافتون إلى سفح الجبل والسّهل الممتدّ على مرمى البصر عساهم الظّفر ببعض الكلأ والماء لمواشيهم.

ولكن أين الكلأ والأرض تكاد تكون جدباء قاحلة؟ وأين الماء والعين الجارية في السّفح تكاد تنشح من ندرة المطر النّازل طيلة سنتين متلاحقتين؟

كلّ الرّعاة في حالة من الإعياء والإجهاد والبؤس على امتداد هذه الأيّام والأشهر القاسيّة، زادهم قليل ولباسهم بال

وأجسامهم منهكة ووجوههم شاحبة وقطعانهم هزيلة وصبرهم في نفاد.

الكلّ ينتظر رحمة من السّماء ويطمع في غيث يروي الأرض ويسقي الحرث ويطفئ الظمأ ويطهّر الأبدان والألبسة.

في هذا الجوّ الرّهيب من الترقّب والانتظار والأمل وفجأة ومن دون سابق إعلام سمعت أزيز طائرات ودويّ مدافع حربيّة عن بعد قطّع أوصالي وفزعت فزعا شديدا وفزعت عنزتي على غير عادتها وثغت ثغاء مزعجا كأنّه نذير شؤم آت من مكان بعيد.

وخرجنا للتوّ من كوخنا نستطلع الأمر آملين من الله أن يجنّبنا ويجنّب جيراننا أدنى مكروه.فإذا بجميع الرّعاة وقطعانهم متسمّرون في أماكنهم وهم في فزع عظيم يعمهون، حالهم حالنا، يتملّكهم الذّعر والتساؤل والرّجاء.

وتوقّف الأزيز والدويّ برهة زمنيّة فواصل الرّعاة سيرهم وتوجّهوا كعادتهم نحو العين للارتواء وسقي مواشيهم قبل الشّروع في الرّعي التماسا للكلأ والعشب.

وتجمّعوا حول العين وتزاحموا وتكاتفوا كلّ يدلي بدلوه للحصول على قليل من الماء دون كلام أو صراخ فقد أنهكهم الجوع والعطش والعراء.

وسرعان ما أطلّت في الطّريق سيارة عسكريّة متبوعة بشاحنة عسكريّة كذلك, كانتا تطويان الأرض طيّا وتنثران الغبار والأتربة في جميع الاتجاهات.

اقتربتا شيئا فشيئا من تجمّع الرّعاة ثمّ بغتة توقّفتا وفتحت أبوابها ونزل منهما رجال عسكر في أزيائهم الرّسمية يتقدّمهم قائدهم.

كنت أرقب المشهد من بعيد فقد كان كوخي يطلّ على سفح الجبل والطّريق الرّئيس فجمعت قواي وصاحبت عنزتي وتوجّهت نحو التجمّع لأعرف حقيقة ما سيدور وأحسست في هذه اللّحظة بالذّات أنّ خطرا ما سيداهمني وسيداهم عنزتي الوفيّة وجيراني وقطعانهم.

إقتربت من السّفح بخطوات ثقيلة بطيئة ثابتة فقد ولّت عنّي فتوّة الشّباب واشتعل رأسي شيبا واغرورقت عيناي ووهن عودي واحدودب ظهري وذاب شحمي ولحمي وانكمش جلدي على عظامي وبليت ثيابي.

ولكن ظلّ هيكلي قائما على رجلين مقوّستين لجسم هزيل يتكئ على عصاه تارة وعلى عنزته تارة أخرى.

اتّخذت مكانا غير بعيد عن الجمع المحتشد وبقيت أنتظر وأرقب ما سيدور.

وتقدّم قائد الكتيبة نحو الرّعاة بخطاه الثّابتة ولباسه العسكريّ الأنيق الّتي تميّزهقبّعة مخطّطة مزركشة بألوان زاهية مزيّنة بنجوم صفراء فاقع لونها, فهتف بأعلى صوته مخاطبا الحضور بلغة عربيّة هجينة:

- يا قوم يا قوم اسمعوا قولي اطمئنّوا أوّلا على أنفسكم وشياهكم وديباركم فلن يصيبها مكروه انظروا إلى هذه الشّاحنة الكبيرة، إنّها شاحنة معبّأة لكنّها لا تحمل سلاحا فتّاكا أو غير فتّاك ولا عبوات ناسفة أو غير ناسفة ولا مواد كيميائية أو غير كيميائية ولا قنابل عنقوديّة أو غير عنقوديّة معترف بها دوليّا أو غير معترف بها دوليّا ولا قنابل جرثومية أو غير جرثومية ولا مواد حارقة أو غير حارقة ولا مواد لكريموجانيّة أو غير لكريموجانيّة ولا قنابل مسيلة للدّموع أو غير مسيلة للدّموع ولا مسدّسات ولا رشّاشات

ولا كلاشنكوفات ولا بنادق ولا حتّى رصاصة واحدة فهل اطمأننتم؟

تهامس القوم ولم ينطقوا وربّما دبّ في نفوسهم بعض الاطمئنان, ولكنّي أحسست أنّ خطرا ما داهم وفضّلت الصّمت والانتظار والترقّب إلى حين وأنا عجوز لا حول لي ولا قوّة إلاّ عنزتي الوفيّة فهي سلواي وملاذي في حال الفرج والضّيق.

وقلت في نفسي للتّخفيف عنها وتسكينها:

- أسمع وأرى أوّلا ثمّ أقرّر وأصرّح ثانيا.

وشعر القائد بشيء من راحة البال وزهو النّفس إذ القوم لم يعارضوه فيما قال، بل ذهب إلى ظنّه أنّهم استساغوا كلامه وأنّى لرعاة الشّاء أن يتكلّموا؟ وأنّى لضعاف الحال أن يعبّروا عمّا يختلج في صدورهم؟ وأنّى لأصحاب الثّياب الرثّة والوجوه الشّاحبة أن يصرخوا؟

وتنهّد القائد وتنفّس الصّعداء وعزم على مواصلة حديثه بإصرار وجرأة وعنجهيّة. فهو صاحب القرار والأمر والنّهي وتعليماته أوامر لا تناقش فتابع خطابه للقوم قائلا:

- هذه الشّاحنة الضّخمة محمّلة بالألبسة الحريريّة للنّساء والرّجال والأغطيّة الصّوفية الواقيّة من زمهرير الشّتاء وبرده القارس، والمؤن الشهيّة على اختلاف ألوانها وأشكالها والهدايا الفاخرة التي تأخذ الألباب بل أكثر من ذلك، إنّها محمّلة بالحلوى والكعك والمرطّ بات والأكلات الجاهزة ومعلّبات السّردين والتنّ وشرائح الجبنة وأكياس السّكر وصناديق الشكولاطة وعلب عصير الليمون والفستق وقوارير المشروبات الغازيّة وغير الغازيّة وكدت أن أنسى وكيف أنسى المياه المعدنية المعبّأة في القوارير البلاستيكيّة؟

على هذا الكلام المعسول المنمّق، كلام ظاهره رحمة وباطنه عذاب، اشرأبّت أعناق القوم وتطاولت وكيف لا تشرأبّ ولا تتطاول وهم ينصتون إلى مثل هذا الكلام لأوّل مرّة في حياتهم وبطونهم تتضوّر جوعا وألسنتهم تلتصق بأحلاقهم عطشا؟

استهوى لين الكلام ورقتّه جيراني فسكتوا عن الكلام المباح ولكنّي شممت منه رائحة الخيانة والمكر والغدر وتوجّست منه ومن قائله خيفة وتساءلت:

- كيف يأتي الخير من أعدائنا؟

وتذكّرت لتوّي ما وقع لابني يوم حمله الجنود عنوة وألحقوه بالجنديّة هو وثلّة من خيرة الشبّان لمساعدتهم على ردّ "العدوان" حسبما قالوا لي ولأمّه وللجيران, وإلى يوم النّاس هذا لم يعودوا إلى موطنهم والجميع في انتظارهم بفارغ الصّبر.

ومرّة أخرى كتمت أنفاسي وقلت في نفسي:

- اصبر أيّها الشيخ فقد صبرت على نوائب الدّهر أكثر من مائة عام ولا تصبر على ساعة من الزّمن! وآثرت السّكوت في آخر الأمر، وجلست على صخرة ناتئة من السّفح مطلّة على المشهد فلا الرّجلان ولا العصا ولا العنزة أمست قادرة على حمل جسمي المنهوك وأسلمت أمري إلى الله مراقبا ما يجري.

وفي هذا الجوّ التّي خيّم على الجميع وجد قائد الكتيبة الشّجاعة الكافيّة لمواصلة حديثه فانتهز فرصة صمت الجمع نطق قائلا:

- إنّ كلّ هذه الخيرات التّي سردتها على مسامعكم،هي لكم نعم لكم وحدكم ولا ينازعكم فيها أحد،هي ملككم

تقاسموها كيفما تشتهي أنفسكم، هذا متاع كثير سيذهب عنكم جوعكم وعطشكم وعراءكم وبؤسكم وفقركم ولكن له ثمن!

ودون تردّد أوتلكئ انتفضت من مجلسي كالطّير المذعور وعزمت هذه المرّة على التكلّم وقد نفد صبري وقلت في نفسي:

- سأعبّر عن موقفي وأصدع برأيي كلّفني ذلك ما كلّفني فقد طفح الكيل.

وفي جرأة غير معهودة منّي انبريت للقائد ووجّهت سؤالي له:

- أيّ ثمن تعني وأنا أعلم وأنت تعلم والكلّ يعلم أنّ هذا "القوم" كما يحلو لك أن تسمّيه لا حول له ولا قوّة ولا درهم له ولا دينار ولا مثقال ولا قنطار وقد أخذ منه الجوع والعطش والعراء والإجهاد كلّ مأخذ؟

ونظر إليّ قائد الكتيبة نظرة شزراء فتطاير الشّرر من عينيه وحملق في وجهي، ثمّ ارتفع صوته الحادّ واعدا ومتوعّدا وآمرا في الوقت نفسه:

- هوّن على نفسك يا شيخ وأنتم أيّها القوم هوّنوا على أنفسكم جميعا،الثّمن بسيط وبسيط جدّا، ما جئنا إليكم إلاّ

لنخفّف من بؤسكم ونساعدكم على إصلاح حالكم وتوفير حاجاتكم ولا نطلب منكم لا درهما ولا دينارا، كلّ ما في الأمر أنّ جيشنا مجهّز بأحدث العتاد والسّلاح وهو متوفّر لديه بالقدر الكافي ولكنّه يحتاج إلى رجال أي جنود يدافعون عن شرفنا وشرفكم وعرضنا وعرضكم وأرضنا وأرضكم، فسلّموا لنا شبابكم للذّود عنّا وعنكم ودحر عدّونا وعدوّكم ونحن نعدكم بتدريبهم على حمل السّلاح واستعماله في اللّحظة المناسبة، فإن سلّمتم لنا شبابكم سلّمنا لكم كلّ ما احتوت عليه هذه الشّاحنة من خيرات وإلاّ...

وسكت القائد وكأنّه ينتظر ردّا من الرّدود وغرق جيراني في صمتهم وذهولهم ولكنّي لم أتوان في الردّ ولو لحظة فاندفعت نحو القائد وصرخت في وجهه حانقا:

- نسلّم لكم فلذات أكبادنا؟ ألم تترصّدوا الكثير منهم في غسق اللّيل؟ ألم تحملوهم عنوة وبلا رجعة إلى حيث تشاؤون؟ فأين أبناؤنا الذّين غابوا عن أهاليهم وأراضينا منذ سنين وسنين؟ لماذا لم يعودوا إلينا والجميع في انتظارهم في حرقة واشتياق؟ الأرامل والثّكالى والشيّوخ

والأطفال والرّضع كلّهم متحسّرون متلهّفون لرؤيتهم وضمّهم إلى أحضانهم ومؤانستهم لا،لا لن نسلّم لكم بأبنائنا الأعزّاء كلّفنا ذلك ما كلّفنا، وكفاكم هراء وهذيانا وخداعا!

ثارت ثائرة قائد الكتيبة وهاج وماج فتقدّم نحوي بضعة أمتار وقاطعني مزمجرا كأنّه أسد خرج من عرينه:

- أوّجه خطابي إليك بالذات أيّها الشيخ "الوقح"، أيّها الشيخ "القذر"، أيّها الشيخ "المجنون"، لا تتدخّل فيما لا يعنيك ولا تسألني عن مصير أولئك أو هؤلاء، الواجب يقتضي ذلك ولا غير الواجب وتعليمات رؤسائي تأمرني بالتّنفيذ في الحال دون مزايدة أو نقاش، لم آت لإبرام صفقة بيني وبينك أو بيني وبين قومك، هذه أوامر وتعليمات جئت أنا وأعواني لتطبيقها ومن رغب عنها فالويل له والشؤم عليه.

زادني هذا الخطاب حماسة وإصرارا وعنادا فصرخت في وجه القائد صراخا مدوّيا يسمعه أهل السّماء والأرض وواجهته قائلا:

- أيّها الرّجل "العاقل" منذ متى كنتم تــدافعون عن الشّرف والعرض؟ وهــل يحــقّ لكم الحديث عن تحرير الأرض وأنتم تحتلوّنها منذ أكثر من مائة عام؟ وهل تسمــحون لأنفســكم بالتبجّح بالحريّة والعتق وأنتم تستعبدون شبابنا وتلقون بهم في ويلات الحروب وتــدفعون بهم إلى مهاوي الهلاك ؟"فمتى استعبدتم النّاس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا"؟ وأين إنسانيتكم أيّها "العقــلاء"؟ يا أيّها الجبابرة، يا أيّها الطّغاة، يا أيّها الفراعنة، ولوّا عنّا وعن أرضنا واتركونا نعيش في أمن وسلام ولا حاجة لنا بخيراتكم والرّزق على الكريم.

استشاط القائد غيظا وانفجر كأنّه بركان تخرج منه حمم ملتهبة وكل لي شتّى أنواع السّباب وقذفني بأسوإ النّعوت:

- أيّها الشيخ الوغد الوقح، أتتلفّظ بكلام كهذا أمام قائد الكتيبة وترفض الانصياع للأوامر؟ إنّك حقّا لمجنون طار عقلك وتريد أن تذهب عقول الآخرين؟ ومن نصبّك محاميا للحديث على ألسنة القوم؟ أنت حقّا رجل ذميم الخلقة والخلق، أنت شيخ هرم سليط اللّسان تتدخّل في شؤون لا تعنيك ومن تدخّل فيما لا يعنيه لقي مالا

يرضيه، أنت حيوان يحتاج إلى من يقوّم إعوجاجه وينفش صوفه وينزع جلده ويقطع لسانه ورقبته، أفهمت يا أيّها الأحمق الغبيّ؟

ثم أشار إلى بعض أعوانه إشارة لم أفهمها فتقدّموا نحوي وغلّوني بسلاسلهم وألقوا بي داخل الشّاحنة كما تلقى الشّاة عند ذبحها وأوصدوا بابها بعنف وغلظة والجميع واجمون ذاهلون حائرون ماعدا عنزتي التّي لم تنقطع عن الثّغاء في وجه قائد الكتيبة ثغاء يقضّ مضاجع الموتى في أجداثهم والأحياء في فرشهم.

وأنا أدرى بثغاء عنزتي الوفيّة فهي تصرّح للحاضرين والغائبين وتقول بأعلى صوتها:

- الكرامة قبل المرطبات، الأرض قبل الشكولاطة والأولاد قبل الكعك.

في 18 جمادى الأولى 1426 هـ

الموافق 25-06-2005 مـ

هكذا نطق الطّفل المدلّل

اشتدّ عودي وقويت عضلاتي وأصبحت قادرا على القيام بشؤوني الخاصّة بمفردي وأمسيت في غنى عن كلّ مساعدة من أهلي وأترابي.

لا أحتاج إلى من يوقظني في الصّباح الباكر للذهاب إلى الكتّاب، أفتح عينيّ كلّ يوم وأرمق نافذة غرفتي الضيّقة في طولها و عرضها والرّحبة بما احتوته من أثاث متراكم: هذا سرير طويل عريض وهذه طاولة عالية ملتصقة بكرسيّ وثير، وتلك خزانة شاهقة تجمع أدباشي وبعض لوازمي من أقلام تلوين وأوراق ملوّنة وأخرى ناصعة البياض، هذه الأوراق سمحت لي بالتعرّف إلى كلّ الألوان الفاترة منها والنّكناء ولا يصعب عليّ تسميتها والتّمييز بينها.

وحدّث ولا حرج عن لعبي الكثيرة المتناثرة هنا وهناك في أرجاء غرفتي ويصعب عليّ تعدادها أو حصرها: فهذه كرة بل كرات مختلفة ألوانها, وتلك لعب بلاستيكية متنوّعة أشكالها فمنها من اتّخذ شكل السيّارات والطائرات والدّبابات والأسلحة

النّارية وغير الناريّة, ومنها قطع خشبيّة ذات أحجام هندسّية على شاكلة المكعّب والموشور والهرم والاسطوانة...

وكيف أنسى خذروفي وهو أحبّها إليّ، خذروفي هذا طويلة قامته، نحيف جسمه، ممتدّ عنقه، حادّ لسانه ومتناسقة ألوانه، إشتراه لي أبي يوم عيد الفطر منذ سنتين بمائة مليم؟ وكيف أستبدله بغيره وهو الّذي وفّر لي فرصا عديدة للتغلّب على أترابي في منافسات شريفة بريئة تجمعنا عند اللّعب في ساحة حارتنا؟

ولقد كان أصدقائي يطلقون عليه اسم "الخذروف المحظوظ" ويناشدونني إعارته إيّاهم من حين إلى آخر تيمنّا به وكأنّه لؤلؤة ثمينة تنبهر بها الأعين وتتلقّفها الأيدي. كذلك لا أنسى كجّاتي المزركشة ذات الألوان الزاهيّة النّي كانت تجذب أنظار "الصّغار" وحتّي "الكبار" وقد فاق عددها المائة.

وغير هذه اللّعب الّتي ذكرتها كثير وكثير، لعبي عزيزة على نفسي، محبّبة إلى قلبي آخذة بعقلي شاغلة لفكري فهي تلازمني بالليل والنّهار ملازمة الظلّ وتكاد لا تفارقني وهي في الحفظ والصّون داخل غرفتي ولا تخرج منها إلاّ بإمرتي وتحت رعايتي. كنت أنهر كل من يريد أن يتسلّى بها دون الحصول

على موافقتي وكان لا بدّ من الاستئذان من صاحبها أوّلا، فإن كان الّذي رغب ودّها متأدّبا معي ومعها أذنت له وإن كان غير ذلك رفضت تسليمها ولو لبرهة زمنية قصيرة.

لعبي المحبوبة لا تغادر غرفتي إلّا بمشيئتي وإرادتي فأنا صاحبها ومالكها والمسؤول عنها، أذود عنها وأصونها وأرعاها من الأيدي صغيرة كانت أم كبيرة,الّتي تريد العبث بها أو تحطيمها أو إتلافها.

إنّها بالنّسبة إليّ جزء من كياني وذاتي بل هي كياني وذاتي, ولا أتصوّر على الإطلاق أنّها ستفارقني يوما ما وأنا لصيق بها وهي لصيقة بي طيلة "حياتي."

صحيح أنّ عمري لم يتجاوز السّادسة ولكنّ هذه اللّيلة بالذّات وأنا آوي إلى فراشي كالعادة لآخذ نصيبا من الرّاحة بعد يوم طويل قضيته مع لعبي وأصحابي, جالت في خاطري أمور كثيرة كبيرة وأفكار عديدة خطيرة لم تخطر على بالي ولا على بال أحد ولم تكن في حسباني وحسبان أحد.

جلست على سريري أرمق لعبي المنتشرة في أنحاء غرفتي إنتشار الجراد في يوم قائظ وهي ترمقني وكأنّها تتوسّل إليّ وتستغيثني من شرّ مستطر قادم.

وتأمّلتها مرّة ومرّة ونظرت إليها نظرة شزراء فيها إحتقار واستصغار وفكرّت جديّا في التخلّص منها بكلّ وسيلة من الوسائل بأقصى سرعة وفي أقرب وقت ممكن, بل فكرت في تحطيمها وتهشيمها بيديّ والدّوس عليها أو إلقائها من نافذة غرفتي فيلتقطها أطفال الحارة أو إهدائها إلى "الصّغار" أو بيعها "للكبار" إن كانوا يرغبون في شرائها لصغارهم.

نعم هكذا نظرت إلى لعبي هذه اللّيلة وهكذا أريد أن أتعامل معها في المستقبل معاملة خشنة ودون شفقة أو رحمة !وهكذا نطقت صارخا في حضرتها:

- أيّها اللّعب اللّعينة أكرهك، أكرهك، أكرهك لأنّك أخذت من وقتي الثّمين وجعلتني طفلا يقضي أغلب أوقاته في اللّعب واللّهو والتّسلية ولا يشغل إلاّ بعالمه الصّغير.

العالم من حولنا كبير فسيح رحب فلماذا ضيّقته وجعلته منحصرا في بضعة كرات متنوّعة أحجامها أو كجّات مختلفة ألوانها أو مجموعة من القطع الخشبيّة والبلاستيكيّة أو أوراق وأقلام ملوّنة أو خذروف يدور للحظة ثمّ يتوقّف عن الدّوران، أمّا الكرة الأرضية فلا تتوقّف عن دورانها ولو لثانية؟ أنا سئمتك،نعم سئمتك حقّا فهل سئمتني؟

وركنت لعبي إلى صمتها الممل ولكنّي عزمت على مواصلة خطابي لها في حنق واغتياظ قائلا:

- أنا عاملتك معاملة الكبار كنت دوما حريصا على صيانتك وعدم إتلافك وأزجر أيّ شخص يريد أن يتسلّى بك ثمّ يعرض عنك أو يرمي بك جانبا بقسوة وغلظة ولا يعيرك أيّ اهتمام وأنت لماذا تعامليننني معاملة الصّغار، جعلتني مقوقعا في عالم الصّغار وأخذت بتلابيبي إذا أردت الفرار إلى عالم الكبار؟ أنت المتسبّبة في نعتي بالولد الصغير والطفل المدلّل، الكلّ يناديني: يا ولد، يا طفل، يا مدلّل والكلّ ينهاني ويأمرني قائلا:
- لا تتدخّل في شؤون الكبار ولا تحشر نفسك في أمور لا تعنيك، اذهب وتله بلعبك في غرفتك، ما زلت صغيرا لا يفقه من الحياة شيئا.

ها أنا أعلن أمام الأقارب قبل الأباعد وأمام الكبار قبل الصّغار وبجرأة متناهية:

- هذا فراق بيني وبينك، اللّيلة يتمّ الطّلاق بيننا كما يقول الكبار.أنا أتّهمك بإضاعة وقتي ووقت أترابي في الحارة بل وقت كلّ أطفال العالم.لم تمكنهم من فرصة الانتقال

إلى عالم الكبار وكلّ الأدلّة والقرائن ضدّك، فقفي في قفص الاتهام وسأمكنك من فرصة الدّفاع عن نفسك.

ولم تحرّك لعبي ساكنا ولم تنبس ولو بكلمة واحدة ولازمت الصّمت المطبق.

عندها أعلنت حربا شعواء على لعبي وتلفّظت نحوها بكلام لاذع وعيّرتها بأقبح النّعوت وواجهتها قائلا:

- أيّتها اللّعب الحقيرة أنت بلهاء لا تعقلين، أنت عمياء لا تنظرين، أنت صمّاء لا تسمعين، أنت خرساء لا تنطقين، أنت ساكنة لا تتحرّكين،أنت ميّتة لا تتنفّسين، أنت حطام زائل لا يصلح لأيّ شيء، أنت مادّة لا روح فيها ولا شعور ولا تفكير، أنت جماد هامد لا قيمة ولا وزن ولا اعتبار له والجماد هو الموت و الحركة هي الحياة كما يقول الكبار.وإذن فأنا محقّ في اتهاماتي لك لذا أصرّح بناء على الأدلّة والقرائن سالفة الذّكر وبناء على اعترافاتك وإقرارك بذنوبك نحوي ونحو كلّ أطفال العالم وبناء على صمتك المقيت وعدم الاستئناس في نفسك القدرة على الدّفاع عن نفسك بنفسك أصرّح أنّ المحكمة الموقّرة قرّرت مايلي:

أوّلا: الفراق الأبديّ بين الطفل المدلّل ولعبه.

ثـــانيّا: التخلّص من اللّعب بأيّ وسيلة يراها الطفل المدلّل مناسبة له.

ثـــالثا: الأحكام الصّادرة عن المحكمة الموقّرة نهائية وغير قابلة للاستئناف والتّعقيب.

رابــعا وأخيرا: تأجيل تنفيذ هذه القرارات إلى مطلع فجر اليوم الموالي.

إرتاحت نفسي لهذه القرارات الجريئة وألزمتها بالإذعان لها دون قيد أو شرط وهيّأتها لتنفيذها في الأجل المسمّى وأسلمتها إلى نوم عميق.

وملأ النّوم أجفاني ولكن سرعان ما عادت إليّ الهواجس وأقضّت مضجعي فانتفضت كالعصفور المذعور من فراشي وفتحت باب غرفتي واتّجهت مهرولا نحو غرفة والديّ ودخلت عليهما دون استئذان وهما يغطّان في نوم هادئ، ودون تردّد منّي دنوت من سريرهما وصحت في وجهيهما:

- أمّي، أمّي، أبي، أبي، أريد منكما أن تشتريا لي سيّارة فخمة حقيقيّة!

واستيقظا من نومهما مذعورين وقد دبّ الفزع في وجهيهما وتلمّستني أمّي بأطرافها وسألتني حائرة:

- ما بك؟ ما بك يا ولدي العزيز...؟ أيّ مكروه أصابك يا طفلي المدلّل؟

أجبت في إصرار ووعي تامّ:

- اطمئني يا أمي، اطمئن يا أبي، ما أصابني أيّ مكروه والحمد لله، أريد فقط أن أشتري سيّارة،نعم سيّارة فخمة هذه المرّة مثل سيّارة جارنا.

وتدخّل أبي ليبعث الاطمئنان في نفسي قائلا:

- حسنا يا ولدي،غدا إن شاء الله سأشتري لك سيّارة فخمة، أنسيت أنّ يوم غد هو يوم العيد وستعمّ الفرحة الكبار والصّغار؟

وأسرعت في الردّ للإفصاح عن طلبي:

- أرغب في سيّارة فخمة حقيقيّة، نعم حقيقيّة بالفعل جنونيّة سرعتها، وثيرة كراسيها،لامع بلّورها، ضخم محرّكها، أسود لونها، حديثة تقنياتها ولا أرغب في لعبة على شاكلة سيّارة يلهو بها الصّغار والكبار، أفهمتما مقصدي؟

وحاولت أمّي ثانيّة إقناعي وترضيتي إشفاقا منها عليّ وتهدئة من روعي:

- نعم يا صغيري و يا عزيزيو يا ولدي المدلّل فهمنا مقصدك، اهنأ وأبشر سيشتري لك أبوك سيّارة فخمة حقيقيّة والآن عد إلى فراشك وقرّعينا.
- أمّي من فضلك، أنا لست طفلا صغيرا ولاولدا مدلّلا، هذه الأوصاف لا تليق بي ولا تعجبني وها أنا وبداية من هذه الليلة ليلة عيد الفطر أصبحت كبيرا.

و أرادت أميّ ملاطفتي وتطييب خاطري فأجابتني بكلام معسول:

- حسنا يا بنيّ ونعم الولد الصّالح أنت أنا فخورة وسعيدة بك يا فلذة كبدي، ما شاء الله أمسيت تفكر مثل الكبار ولكن أنت تعلّم أنّ سيارة فخمة حقيقيّة تتطلّب أموالا طائلة لشرائها وإن شاء الله ستزاول تعلّمك بالمدرسة لتنال قسطاوافرا من العلم والمعرفة وستكون موظّفا كبيرا يا ولدي وستحصل على مبتغاك بإذن الله و يا عزيزي الكبير العاقل نحن الآن في الهزيع الأخير من

اللّيل فعد إلى فراشك في سكينة وطمأنينة والصّباح رباح...

بثّت فيّ هذه الكلمات شيئا من الانشراح ووضعت عنّي شيئا من الحيرة.

وضمّني فراشي من جديد وأيقنت أنّ والديّ ليس لهما استعداد لمحاورتي والوقت متأخّر وأحسست أنّهما ربّما لم يفهما قصدي ولم أشأ أن أنغّص عليهما نومهما الهادئ و أرجأت بقيّة الحوار إلى حين شروق الشّمس وأنا "الكبير العاقل" الذي يضع الأمور في نصابها ويقدّرها حقّ قدرها ومرّة أخرى اندسست في غطائي وأغمضت عينيّ وفوّضت أمري إلى خواطري وهواجسي وأحلامي تفعل بي ما تشاء.

وتحقّق حلمي في منامي،نعم تحقّق حلمي الذي كنت أحلم به، بالفعل وجدت نفسي في يقظة الحلم.

وهذا هو حلمي الصّغير يتحوّل إلى حلم كبير: أنا شابّ وسيم أنيق في مقتبل عمره وعنفوان شبابه، تحصّلت على شهادات

علميّة رفيعة خوّلت لي أن يكون مركزي الاجتماعي مركزا مرموقا بين النّاس.

أصبحت من صنّاع القرار ورأيي يقرؤ له ألف حساب وبيدي الأمر والنّهي على الأقلّ في مجال عملي.

أمسيت من كبار الموظّفين ولي وجاهة وقدر عال بينهم وإذن مكّنتني صفتي هذه من اقتناء سيّارة فخمة فاخرة، نعم اقتنيت سيّارة من أفخم وأفخر السيّارات على حسابي وبمالي الخاصّ.

وها أنا أعدّ نفسي لامتطاء سيّارتي الفخمة لحضور حفل تكريميّ يقام على شرفي هذا اليوم وبإشراف كبار المسؤولين وسماة الأعيان.

لقد أخبرني رئيسي أنّ وسام الشّرف الأوّل أسدي إليّ تقديرا لأعمالي وخدماتي النّي قدّمتها لمؤسستي ووسام الشّرف هذا هو من نصيبي اعترافا بالمجهودات النّي بذلتها من أجل أن تكون مؤسّستي من أنجح المؤسسات وسينالني الشّرف كذلك للحصول على رتبة فوق رتبتي والظّفر بمنحة ماليّة وتقديريّة.

ها أنا على استعداد تامّ لركوب سيّارتي آه نسيت فقط ربطة العنق لأضعها في مكانها.

الآن، أصبحت جاهزا، يجب أن أكون اليوم وسيما أنيقا لائقا أكثر من اللزّوم لأنّ الاحتفال التكريمي هو احتفالي والمحتفى به هو أنا وما أدراك ما أنا.

وأخيرا ركبت سيّارتي الفخمة الّتي كنت أحلم بها وأنا الصّغير المدلّل. وتملّكني العجب والكبرياء فأنا اليوم كبير في نظري و نظر أمّي وأبي وأهلي وأصحابي وجيراني وأيضا في نظر كلّ من أعرفه ومن لا أعرفه.

اليوم أصبحت لي اليد الطولى في كلّ المسائل والشؤون الّتي تتعلّق بمؤسستيفأنا الّذي يشرّع ويقرّر فيقبل أو يرفض ويعطي الأوامر للتّنفيذ، أكـــاد أقول إنّ مستقبل مؤسستي بيدي أدير شؤونها كما يحلو لي، ألست رئيسها المدير العام الجديد وسيتمّ تنصيبي على رأسها بعد ساعة من الزّمن أو أقلّ؟

ودارت عجلات السيّارة وشقّت أهمّ الشوارع الفسيحة الجميلة للمدينة، سيّارتي من أعلى طراز: سرعتها تتجاوز سرعة الرّياح العاتيّة، كراسيها وثيرة، بلّورها لامع، محرّكها ضخم، لونها أسود قاتم، تقنياتها حديثة، سيّارتي حديثة العهد بالشّوارع

وقلّما تجد مثيلة لها بين السيّارات، لأنّها حقّا نادرة الصّنع تأخذ ألباب الصّغار والكبار.

وفي مفترق من مفترقات شوارع المدينة استوقفتني إشارة الضّوء الأحمر فكبحت جماح سيّارتي وألزمت نفسي باحترام الإشارة الضوئيّة.

وفجأة ودون سابق إعلام, ارتمت على البلّور الأمامي للسيّارة جثّة آدميّة فمنعت الرؤيّة عنّي واضطررت إلى فتح بابها وأنا في عجل من أمري وعزمت على استجلاء الأمروتقدّمت نحو هذا الرّكام من اللّحم والعظم والثّياب الرثّة الممزّقة.

وجدت نفسي أمام مشهد غريب إنّه بائس من البؤساء أو شقيّ من الأشقياء أو تعيس من التّعساء أو لعلّه مجنون من المجانين وتقدّمت نحوه وأنا الرّجل الوسيم في مظـهره الأنيق في لباسه المحترم في عمله، وقد أخذ الغضب منّي كلّ مأخذ وصحت في وجهه:

- ما بك أيّها الرّجل؟ماذا تريد منّي؟

فنظر إليّ نظرة شزراء ولم يردّ عن أسئلتي فاستشطت وانفعلت وتفوّهت بكلام لائق وغير لائق:

- أترك سبيلي من فضلك، لي أمر هّام في انتظاري ولا أريد أن أتأخّر عن الموعد، لماذا لا تحترم نفسك وغيرك؟ وكيف تجرؤ على مصادمة سيّارتي وتلطيخها بلباسك القذر؟

ودون انتظار جواب منه، أولجت يدي في جيب كسوتي الخارجي ودفعت بكميّة من النّقود إليه لكنّه أعرض عنها وعنّي وأجهش بالبكاء وذرفت عيناه حتّى ابتلّت لحيته الوسخة وتساقطت دموعه على ثيابه البالية

رقّ حالي له وأحسست بشيء من الشّفقة نحوه فسألته مستفسرا:

- ما طلبك أيّها السيّد العجوز؟ هل أنت مريض ينقصك دواء؟ أم فقير تحتاج إلى طعام ولباس؟ وللمرّة الثانيّة أدخلت يدي في جيب كسوتي الدّاخلي وأخرجت كميّة من الأوراق الماليّة ومددت يدي إليه فرفض أن يتسلّمها وبقي على حاله: باكيا واجما صامتا مرتعش اليدين خائر القوى فاتر الحركة.

ثمّ نظر إليّ نظرة فاحصة وأفصح:

- أنا آدميّ مثلك أريد منك فقط أن تعاملني معاملة الآدميّين لا معاملة البهائم.
- تفضّل يا سيّدي الشّيخ ماذا تريد منّي أن أفعل؟
- أنا لست في حاجة إلى مالك، فالمال مال الله ولكن لي طلب واحد عندك.
- وما هو طلبك يا سيّدي؟
- أريد أن أركب سيّارتك الفخمة هذه فتخصّص لي ساعة من وقتك الثّمين لتحدّثني وأحدّثك، هذا ما أريده فقط !
- ولكن الظّروف لا تسمح بذلك، وأنا على موعد هامّ يتعلّق بي شخصيّا فخذ منّي هذا القدر من المال واستعن به على نوائب الدّهر.

فأجابني مغتاظا:

- أنا لم استجدك من فضلك وما مددت يدي لأحد استعطاء، لُذت الرّجل الوسيم الأنيق اللّبق، عاملني معاملة تليق بآدميّ، هذا فقط ما طلبته منك،فهل حقّا تريد مساعدتي؟

همهمت أوّلا وعادت إليّ إنسانيتي تترجّاني:

- لم لا تخصّص بعضا من وقتك لسماع الرّجل؟ وما الضّير لو لحقت بالموعد متأخّرا بعض الشيء؟

وأشرت إليه بالرّكوب وأسرعت وفتحت له باب السيّارة وقلت له بلطف ولباقة وأدب:

- تفضّل يا سيّدي الفاضل اركب.

امتطيناالسيّارة وواصلنا الطّريق وسألته:

- إلى أين؟

أجاب في هدوء:

- إلى حيث أنت ذاهب أذهب معك، فلا أريد أن أكون سببا في تأخرك عن موعدك الهامّ.

أنا إنسان غير أنانيّ أراعي ظروف الآخرين و أحوالهم ولكن لا أجد من يراعي ظروفي وأحوالي.

وجدت في كلامه حكمة بالغة فسكتّت وخاطبت إنسانيتي:

- أنتهز مسافة الطّريق لأهدئ من روعه ولأخفّف من كربته وأخلىّ سبيله ليخلّي سبيلي.

وعدت إلى مساءلته:

- من أنت؟ ولم حالك تشبه أحوال البؤساء و التّعساء والأشقياء؟

- لماذا لم تجرؤ كما يجرؤ الكثير فينعتونني بالجنون والبله؟
- لا، لا عفوا يا سيّدي أنت لست مجنونا ربّما تكون تعيسا أو فقيرا ضاق به الحال ولكن لديك عزّة نفس وكرامة لأنّك رفضت مساعدة ماليّة بسيطة أردت أن أقدّمها لك لإصلاح حالك وحال أهلك.

وباغتني بردّه قائلا:

- أنا أعرفك حقّ المعرفة فهل نسيتني أم تتجاهلني ولا يحصل لك شرف معرفتي؟
- تعرفني؟ ومنذ متى تعرفني؟
- منذ زمن بعيد، منذ الصّبا، فأنت صاحب الخذروف، خذروفك كما كنت تصفه لي طويل القامة، نحيف الجسم، ممتّد العنق، حادّ اللّسان، متناسق الألوان، إنّه "الخذروف المحظوظ" أو نسيته أيضا مثلما نسيتني؟ أنا أحذق اللّعب بالخذروف مثلك، لقد لعبت معك بخذروفك كما لعبت معي بخذروفي، أعرفتني الآن؟

وحملقت في وجهه، صحيح أنّ ملامحه تغيّرت، وصحيح كذلك أنّه اكتهل في شبابه بل شاب وشاخ في مقتبل عمره، نعم

إنّه هو، أعرفه حقّ المعرفة كما يعرفني، كان من أعزّ أصدقائي، بل هو المحبّب إلى قلبي دون سواهم لأنّه لم يكن أنانيّا ألبتّة ولم يكن مزهوّا بنفسه ولم يركبه الغرور والاستعلاء رغم أنّه ابن لجارنا الغنيّ، كان يشارك أطفال حارتنا لعبهم ومرحهم وحبورهم ويحضر إليهم بين الفينة والأخرى ما لذّ وطاب من الشكولاطة والحلوى ويتقاسمها معهم.حقّا إنّه هو، وهل يخفى عنّي أحبّ الأصحاب إلى قلبي؟

صدمتني المفاجأة وأدخلت على نفسي شعورا عجزت عن وصفه لا أقدر على التّعبير عنه.

كبّلت فرامل السيّارة وتوقّفت عند شجرة وارفة الظلال, وارتميت على صاحبي أقبّله ويقبّلني وأضمّه إلى صدري ويضمّني إلى صدره وتلتفّس رائحته الكريهة ويتنفّس رائحتي الزكيّة، وقلت له دون مجاملة وأنا على يقين من أمري:

- أنت أعزّ أصدقائي، أنت أحبّ النّاس إلى قلبي، أنت طفولتي البريئة، أنت مرحي وحبوري، أنت صحبتي الوفيّة، ولكن أخبرني لماذا أصبحت على هذه الحال؟ وماذا فعل بك الدّهر؟

أجاب بصوت منكسر والدّموع تنهمر من مقلتيه: تلك قصّة طويلة، طويلة مفزعة مريعة تفاصيلها تتطلّب وقتا طويلا كطولها، لا تسأل الآن عن حالي وأسرع لتكون في الموعد الّذي ينتظرك وسأترك سبيلك وتترك سبيلي.

نظرت إلى عينيه المغرورقتين بالدّموع وقلت في نفسي:

- كيف أفرّط في أعزّ أصدقائي وهو على هذه الحال؟ وهذا واجب الصّداقة الحقّ يناديك.
  وكما يقال: "الصّديق وقت الضّيق".

وعلى التوّ أجبته:

- لا أتركك في سبيل حالك ولا تتركني في سبيل حالي بل سنكون معا في الموعد وستكون أوّل الحاضرين في حفل التكريم.

استغرب موقفي ولكنّه آثر الصّمت وعاد إلى هدوئه.

وطوت السيّارة الأرض طيّا، ووصلنا الى مكان الموعد متأخّرين ودخلنا قاعة الاستقبال الفسيحة المكتضّة بأصحاب السّعادة والفخامة والسموّ، أنا بمظهري اللائق ولباسي الأنيق وهو بمظهره البائس ولباسه البالي.

جميع "السّادة" و"السيّدات"في انتظار وترقّب يتساءلون عن سبب تأخيري، واندهش الجمع لهذا المشهد: الرّئيس المدير العام الجديد برفقة رجل أبله، واشمأزّت النّفوس وتقزّزت من هذا المنظر المروّع واعتبرته نشازا.

وخيّم سكون مطبق على القاعة وتقدّمت نحو منصّة التّكريم المزدانة بالورود والأزهار على اختلاف أشكالها وألوانها، تقدّمت نحو المنصّة صحبة الضّيف الغريب غير المرغوب فيه.

وفسح لي المجال لمخاطبة الحاضرين فاعتذرت في بداية كلمتي عن التّأخير وشكرتهم جميعا على حضورهم وأردفت قائلا وأنا واثق ممّا أقول:

- أيتّها السيّدات الفضليات أيّها السّادة الأفاضل هذا التكريم لا أستحقّه بل يستحقّه هذا الرّجل الوفيّ المخلص - وأومأت إلى صديقي العزيز- ويستحقّه أمثاله الّتين هم في طيّ النّاسي والنّسيان، إنّه أوفى الأوفياء وأخلص المخلصين وأعزّ الخلاّن، كان معطاء محسنا، له أفضال على الآخرين، لا يعترف بالكبر والأنانيّة منذ نعومة أظفاره، إنّه ترب من أترابي الأعزّاء وصديق من أصدقائي الأوفياء وابن جارنا الغنيّ وولد حارتنا الهادئة

ولكنّ الدّهر كشّر له عن أنيابه ونهشه نهشا كما ينهش الأسد فريسته، فيجعلها عظاما نخزة واسمحوا لي أيتّها السيّدات وأيّها السّادة المحترمون أن أسند وسام الشّرف هذا الّذي منحتموني إيّاه إلى أحبّ النّاس إلى قلبي, فهو أحقّ وأولى وأجدر به منّي.

وتقدّمت بخطى ثابتة نحو صديقي العزيز ووشّحت صدره به وبقي الجميع في صمت ووجوم وذهول.

.....

واستيقظت على صوت رقيق رخيم وعرفت أنّه صوت أمّي الحنون:

- انهض يا ولدي العزيز،انهض بسرعة يا كبيري المدلّل، ها قد أشرقت شمس يوم عيد الفطر وسيفي أبوك بوعده وسيشتري لك سيّارة فخمة حقيقيّة حسبما ترغب وتشتهي وتريد.

وأجبتها وأنا بين اليقظة والنّوم:

- حلمي الكبير تحقّق يا أمّي، ولا حاجة لي بسيّارة فخمة حقيقيّة فاخرة، وأيّ شيء أفخم وأحقّ وأفخر من صداقة وفيّة وخلّة وديّة وصحبة زكيّة؟

في 19 جمادى الأولى 1426هـ

الموافق 26-06-2005مـ

شهيّة طيّبة يا عزيزتي

أنا رجل هاو للمطالعة ومحبّ للكتب صغيرها وكبيرها،غثّها و سمينها، جليلها وحقيرها، مقدّسة، وغير مقدسة، صادقة أو كاذبة، صفراء أو بيضاء، قديمة أو حديثة.

أنفقت قسطا لا يستهان به من مالي لشرائها وقضيت وقتا طويلا في تبويبها والتفنّن في تنظيمها وتصنيفها حسب شتّى العلوم والفنون والآداب واللّغات.

امتلأت رفوف مكتبتي بها ثمّ لمّا تضخّمت أحجامها وكثر عددها أصبحت أكدّسها تكديسا لا يليق بمقامها وقيمتها وأصبحت لا أعير أهميّة في ترتيبها وهل لديّ الوقت الكافي لهذه المسألة مسألة التّنظيم والتّصنيف والتّبويب؟

الكتب المدوّنة وغير المدوّنة والمنسوخة وغير المنسوخة والمترجمة وغير المترجمة والمطبوعة والتي في طريقها إلى الطباعة تنتظرني وتنتظر جميع القرّاء على اختلاف نزاعاتهم لتصفّحها والتعرّف إلى ما يجول في خواطر أصحابها والتأمّل في محتوياتها والاطّلاع على مشاربها ومصبّاتها والنّهل من معارفها وبذلك يحصل لي ولهم تنوير واستفادة وإمتاع ومؤانسة.

أصبحت كتبي مرصوصة رصّا، مركومة ركما، مكدّسة تكديسا، مبثوثة بثّا، ومنشورة نشرا، على الرّفوف وفي قاعة الاستقبال وغرف النّوم وبين الطّاولات والكراسي وفوق الأسرّة وتحتها وهنا وهناك وحتّى المطبخ لم يسلم منها.

إنّها مطعمي ومشربي وملبسي في جلّ أوقاتي في ليلي ونهاري في مقامي وترحالي، هي مرتعي ومتنفّسي، هي حياتي بحلوها ومرّها.

زوجتي المصون تحاول أن تنظّمها وأنا أبعثرها، فلمن ستكون الغلبة يا ترى؟ أ للتّرتيب والتّنظيم والتّبويب أم للبعثرة والفوضى والتكدّيس؟

وكانت الغلبة في آخر الأمر للفوضى, واعترفت زوجتي المحترمة بفشلها رغم إصرارها على التّنظيم واستسلمت للأمر الواقع.

كانت في أول عهدنا بالزّواج تكثر من طلباتها إلى حدّ الإفراط، فكلّما أطلّ أوّل كل شهر إفرنجي أقبلت عليّ بقائمة طويلة عريضة لطلباتها.

وكنت أستعدّ لهذا الموعد بشيء من الجلد والصّبر وكنت أتفنّن في استعمال كلّ الأساليب للتهرّب من طلباتها المشطّة أحيانا المقبولة أحيانا أخرى: فتارة أخضع وأنصاع وألبّي كلّ طلباتها أو بعضها، وتارة أرفض بدعوى أنّ الأولويّة لشراء الكتب، وأخرى ألزم نفسي الصّمت فلا أنطق بكلمة واحدة،وفي حالات نادرة أصيح وأزمجر وأرغو وأهيج وأرفع صوتي عاليّا وأنفعل انفعالا شديدا وأصرّح أمام الملإ: يا امرأة،أ أنت آدميّة أم آلة ميكانيكية؟ أ أنت إنسيّة أم جنيّة؟ ارحميني يرحمك الله، الكتب أولى من كلّ هذه التّفاهات، أكانت تعيش أمّهاتنا وجدّاتنا على هذه السّخافات؟ لماذا جعلت هذه المغريات الحقيرة تستعبدك؟ لماذا تغلّبت عليك شهوات نفسك الأمّارة بالسّوء ؟ لماذا انشغل عقلك بسفاسف الأمور وأعرض عن عليائها؟ لماذا شغف قلبك بخسيس الأشياء وغفل عن جليلها؟

ولم تكن زوجتي قادرة على الإجابة عن أسئلتي هذه فتتركني وكتبي وتنصرف إلى شؤونها غاضبة حانقة.

هكذا كان حالنا في أوّل عهدنا بالزّواج, لم تتطبّع على طبعي ولم تُطبّع على طبعها ولعلّ الطّبع يغلب التطبّع كما يقال.

كانت تعتقد أنّ كلّ طلباتها مشروعة وأنّها حقّ من حقوقها الأساسية لا يمكن التّفريط فيها أو التّنازل عنها، وفي المقابل كانت تعتبرها واجبا من واجبات الزّوج المحترم وعليه تنفيذها دون مماطلة أو توان.

وباقتراب فصل الصّيف تزداد طلباتها وتكثر حاجاتها للمناسبات ولغير المناسبات.

وفي يوم من أوائل أيّام هذا الفصل دخلت عليّ وأوصدت باب غرفتي ودنت منّي وأنا منهمك في مطالعة كتاب قيّم شدّني إليه شدّا.

حاولت في بداية الأمر استدراجي في الحوار بلطف فكلّمتني بأدب وقالت:

- هوّن على نفسك يا رجل، الوقت وقت ظهيرة والغداء جاهز منذ ما يزيد عن ساعة، لقد رتّبت كلّ شيء فوق الطّاولة وتفنّنت في طبخ ما لذّ وطاب والكلّ في انتظارك.

لم أعبأ للوهلة الأولى بكلامها فقد تعوّدت على سماعه من حين لآخر حينما تودّ تلبيّة رغبة من رغباتها ثمّ انتبهت إلى ما قالت فأجبتها باقتضاب:

- من في انتظاري؟
- الغداء جاهز ونحن جميعنا في انتظارك.
- حسنا فعلت، سآتي لاحقا وليست لي رغبةقطّ في طعام ولا شراب الآن.
- ولكن! ولكن!
- ولكن ماذا؟ أفصحي
- ولكن حان الوقت لاستقبال ضيفنا المبجّل. أنسيت؟
- ومن هو ضيفنا الذي سنتشرّف باستقباله؟
- ضيفنا المبجّل، بائع المجوهرات.

وحاولت وضع حدّ لهذا الحوار المملّ، وحملقت في وجها وتنهّدت وقلت:

- شهية طيّبة للجميع،لا تنسي أن تقدّمي أطيب طعام وألذّ شراب لك وللزراري وللضّيف المبجّل، فكلوا هنيئا واشربوا مريئا، أمّا أنا فلا أشعر بجوع ولا ظمإ لأنّ شهيّتي انسدّت.

واستغربت كلامي هذا وعادت إلى إلحاحها:

- يا رجل، أكرّر وأقول إنّ ضيفنا المبجّل سيحّل بين الفينة والأخرى، ألا تسمع ما أخبرتك به؟ ما هذه اللاّمبالاة اللاّمتناهية؟ وهل من اللّياقة ترك الضّيف وحده في قاعة الاستقبال؟ وهل من الأدب تقديم الطّعام له من دون حضور صاحب البيت؟ فانهض وأصلح هندامك وسرّح شعرك واستعدّ لاستقبال الضّيف الكريم أحسن استقبال والتّرحيب به أفضل ترحيب.

فأجبتها بشيء من الانقباض:

- إن كان فيك فضل فاتركي سبيلي ساعة من الزّمن حتّى أكمل قراءة بقيّة صفحات الكتاب وأعدك أنّي سألتهمها التهاما وعندئذ سأجهّز نفسي لاستقبال الضّيف.

ونفد صبرها فارتمت عليّ وانتزعت الكتاب منّي، وقرأت في وجهها ملامح الدّشوة والانتصار والغلبة لمّا غدا الكتاب بين يديها وكأنّها صيّاد ماهر تحصّل على صيد وافر، ولكنّي صرخت في وجهها:

- الكتاب من فضلك، هاتي الكتاب وإلاّ...ومن دون تردّد انقضضت على الكتاب انقضاض الصّقر على فريسته وأمسكت بتلابيبه وبشيء من الحدّة والقوّة تمكنّت من استرداده.

وتراجعت وقد تمكن منها الارتجاف والارتعاد والخوف ولكنّها واجهتني قائلة:

- هدّئ من روعك يا رجل، أنا أعرف أنّ جميع النّاس يلتهمون الطّعام ويجدون فيه لذاذة وشهيّة، أمّا أنت فعلى غير عادتهم، صرت تلتهم الكتب والمجلاّت والجرائد والأوراق الصّفراء والبيضاء ويا للعجب العجاب من رجل يحبّ التهام الورق والحبر ويترك بطنه خاويا!

وكان جوابي لها فيه كثير من الحكمة والتدبّر والتعقّل:

- خواء البطن خير من تخمته وتخمة العقل أفضل من خوائه.

أستفهمتي وطلبت منّي تفسيرا وإيضاحا:

- ما هذا الكلام الغامض؟ أهو تفلسف أم ماذا؟ أأصبحت فيلسوفا يا زوجي العزيز؟

وفجأة دقّ الجرس فأسرعت نحو باب البيت وفتحته على مصراعيه، وسمعتها ترحّب بالقادم أيّما ترحاب بصوت رخيم متكلّف:

- تفضّل سيدي المبجّل،كلّنا في انتظارك،حلّت البركة في بيتنا بمقدمك، تشرّفنا بحضورك، البيت بيتك والأهل أهلك، نحن جميعا في خدمتك وتحت إمرتك وسعداء بزيارتك لنا حللت أهلا ونزلت سهلا.

وسمعت من داخل غرفتي قرع نعـــال فأيقنت أنّ الضيف المبّــجل قد حلّ ركبــه وأنّه الآن في بيتنا، وأنصت إلى ردّه بانتباه:

- شكرا لك سيّدتي على حفاوة الاستقبال وكرم الضيّافة وأنا سعيد جدّا بزيارتكم لأولّ مرّة تلبيّة لدعوتكم الكريمة ولا تكلّفوا أنفسكم مالا طاقة لكم بها ثمّ سكت برهة وأردف قائلا:
- ولكن أين هو زوجك المحترم؟

همهمت قائلة:

- سيأتي في الحال، تفضّل إلى قاعة الجلوس، لحظة من فضلك، سأعود للتوّ.

وفتح باب غرفتي من جديد وفوجئت زوجتي بالمشهد، المشهد لم يتغيّر وبقي على حاله: رأسي بين دفتي الكتاب، وعقلي يجول بين ما سطّر فيه من أفكار، مظهري الخارجي لم يطرأ عليه حادث، شعري منفوش، وجهي شاحب، بدلتي للنّوم تضمّ جسمي النّحيف.

انزعجت من هذا المشهد واستغربت من موقفي هذا، لكنّها كظمت غيضها، واقتربت منّي قدر شبر وهمست في أذني:

- وصل الضّيف المبجّل وهو الآن في قاعة الاستقبال فيا زوجي العزيز- أصلح الله بالك- أصلح حالك وقم لاستقبال ضيفك وهو في انتظارك ويسأل عن أحوالك.

وأجبتها بصوت خافت فيه حنق:

- ضيفي؟ إنّه ليس ضيفي بل هو ضيفك ولا علم لي بمجيء هذا الرّجل الغريب عنّي وعن بيتي
- ما هذا الكلام يا رجل؟ أتهذي؟ أأصابك صداع؟ أأنت مريض؟

- أنا سليم معافى من كلّ داء وبلاء والحمد لله وأنا على يقين أنّي لم أوجّه دعوة رسميّة أو غير رسميّة لأيّ رجل كان أو أيّ امرأة كانت.
- ما هذا الهراء؟ألم أخبرك في الصّباح الباكر أنّ صاحب أجمل محلّ للمجوهرات سيحلّ ضيفا علينا اليوم وقد دعوناه لوليمة فاخرة أعددتها بنفسي وفيها ما لذّ وطاب من الطّعام والشرّاب والفواكه؟
- متى أعلمتني بهذا الخبر السارّ؟
- اليوم بالذّات، اليوم في الصّباح الباكر.
- وماذا قلت لك؟
- سكتّ ولم تقل شيئا والسّكوت علامة الرّضى، أليس كذلك؟
- لا يا امرأة ليس ذلك كذلك أخطأت في حساباتك، السّكوت ليس علامة الرّضى بل السّكوت عندي علامة الغضب الّذي يجّر إلى الشّقاء والبلاء.
- ما بك اليوم يا عزيزي لست هادئا كعادتك؟
- هذا أمر يخصّني فدعيني وشأني من فضلك وإلاّ أغلظت لك القول.
- والضّيف المبجّل؟

- أنا لست على استعداد لاستقباله والتّرحيب به وأنا حرّ في تصرّفاتي أفهمت؟
- ولم هذه العنجهيّة ؟ أ في هذا اليوم بالذّات تريد أن تظهر رجولتك؟
- بالفعل هذا ما قصدته اليوم بالذّات أريد إبراز رجولتي لمامك وأمام الرّجال والنّساء والنّاس أجمعين وها أنا أصرّح لك وللجميع وبكلّ جرأة: أنا رجل بكلّ ما في الكلمة من معنى الرّجولة وأنا حرّ بكل ما في الكلمة من معنى الحريّة.
- وماذا أقول لضيفنا الكريم؟
- تصرّفي معه كما تريدين إن شئت أطعمته وأسقيته وإن شئت اعتذرت له وضربت معه موعدا آخر وإن شئت افعلي ما يحلو لك ودعيني وشأني ودعيني وكتابي.
- أيّ كتاب تطالع أيّها الرّجل والّتي منعك من استقبال الضّيف؟
- ومنذ متى أصبحت تعيرين أهميّة للكتاب وتسألين عنه؟ أليست الكتب مضيعة للوقت في تصوّرك؟

وآثرت زوجتي الفعل على القول هذه المرّة،وبغتة انطلقت نحو سريري انطلاق الرّصاصة من البندقية أو السّهم من القوس وافتكت الكتاب من بين يديّ وكاد أن يتمزّق والتهمت عنوانه كما تلتهم قطعة الحلوى "تخمة في البطون وخواء في العقول".

وتفرّست في وجهي مليّا وأنا في حالة ذهول ثمّ نطقت في تشنّج عصبيّ:

- لن أسلّمك الكتاب شئت أم أبيت سأقرؤه على مكث وأستجلي أمره أوّلا ثمّ أعطيه إيّاك سأؤجل موضوع المجوهرات التّي وعدتني بإهدائها إيّاي بمناسبة ذكرى زواجنا إلى وقت لاحق.

ثمّ تأوّهت:

- آه!إنّكم رجال! فهل من مأمن في غير الرّجال؟

واندفعت بسرعة نحو باب الغرفة ففتحته وأوصدته بلا شفقة فانطبق وهو يئنّ وكاد أن يقلع من مكانه.

وبقيت واجما على سريري دون كتابي سائلا نفسي عن شأن المجوهرات وشأن صاحبها:

- هل وعدتها حقّا بشراء بعض المجوهرات بمناسبة ذكرى زواجنا كما ادّعت ؟ وهل أنا رجل ثريّ له حسابات ماليّة جاريّة في المصارف والبنوك لاقتناء مجوهرات ثمينة معادنها وباهظة أثمانها؟وإن كان الأمر كذلك فأين يوجد يا ترى محلّ المجوهرات الثّمينة؟وهل حقّا دعوت صاحب أجمل محلّ للمجوهرات لزيارتنا؟ وهل بالفعل وجّهت إليه دعوة كريمة لوليمة في بيتنا؟ وهل من المتأكد أنّه قبل الدعوة وها هو اليوم يلبّيها؟ وهل لي أصحاب أمثال هذا الضّيف وغيره؟ وهل أمسيت من هواة الولائم الفاخرة وأصحاب البطون المنتفخة والعقول الخاوية؟ وهل لديّ متّسع من الوقت لهذه التّفاهات؟

وأدركت أنّ الأجوبة الشّافية لغليلي عن هذه التساؤلات مبثوثة بين دفتي الكتاب الّذي كنت بصدد مطالعته وعنوانه "تخمة في البطون وخواء في العقول".

ولكن كيف السّبيل إليه وهو الآن في قبضة زوجتي المحترمة؟ وهل من حيلة لتخليصه من القيد والأسر لأتمكن من مطالعة بقيّة أبوابه وفصوله؟

ودون شعور منّي قفزت من مكاني واتّجهت نحو باب الغرفة لأشد ضالّتي وإذا بالحوار التّالي يبلغ الى مسامعي:

- ألتمس عذرا منك سيدي الفاضل، زوجي أصابه صداع جعله يهذي منذ الصّباح ولهذا السّبب الطارئ لن يتمكن من مقابلتك اليوم فرصة أخرى قادمة سانحة إن شاء الله ومرحبا بك في كلّ وقت.
- أقرئيه سلامي وبلّغيه تحيّتي وقولي له على لساني: صاحب أجمل محلّ للمجوهرات يدعو لك بالشّفاء العاجل ويتمنّى لك زوال الهذيان.
- شكرا لك سيّدي الكريم هذا من دماثة أخلاقك وحسن آدابك وسنضبط موعدا آخر في وقت لاحق.
- أنا دائما في خدمتكم وتحت تصرّفكم كما عهدتموني، أنتظركم في القريب العاجل وإلى اللقاء.

ثمّ غلق باب البيت وفتح باب الغرفة، وألزمتني زوجتي العزيزة سماعها:

- هل ارتاح بالك واطمئن ضميرك الآن؟ لقد غادر الضّيف البيت وهو آسف على عدم ملاقاتك وحقّا إنّك رجل عظيم تستحقّ الشّكر والثّناء على هذا الموقف البطولي

وهذا الموقف الرّجولي.أهكذا يتصّرف الزّوج المحترم مع زوجته في ذكرى زواجهما؟ ثمّ هاجت وماجت وتفوّهت بكلمات مشوبة بغلظة ولين.

ولم أعبأ بما قالت لأنّ عقلي كان منشغلا بكيفيّة استرجاع الكتاب لمتابعة أبوابه وفصوله وأجبتها في هدوء تامّ:

- ردّي إلي بضاعتي أوّلا وليس من المروءة الاستيلاء على الكتاب بالقوّة وللحديث بقيّة في وقت لاحق.

وأصرّت على موقفها قائلة:

- لا لن أردّها لك ولن تكون لكّ الغلبة هذه المرّة ألا يكفي أنّك تخلّصت من الضّيف وتهرّبت من شراء ما وعدتني به؟ أليس وعد الحرّ دينا؟
- وبم وعدتك يا عزيزتي؟
- ألم تعدني بإهدائي بعض المجوهرات بمناسبة حلول ذكرى زواجنا؟
- ومتى تحلّ هذه الّتكرى السّعيدة يا ترى؟
- اليوم اليوم بالذّات أتستبلهني أيّها الرّجل العاقل؟
- لا معاذ الله ولكن فكري منشغل هذه الأيّام بما هو أهمّ.

- وأيّ أمر أهمّ من ذكرى زواجنا؟ أهكذا يتصرّف الأزواج العقلاء مع زوجاتهم؟

وأمسكت زمام نفسي وأجبتها بلباقة:

- عفوا عزيزتي مكنيّني من بعض الوقت لمطالعة كتابي وبعدها أعدك أنّي سأعالج الأمر بحكمة.

ورفضت طلبي وعادت إلى عنادها:

- لا لن أمكنك منه حتّى أطالعه بنفسي لأكشف أسراره وأسبر أغواره.

باغتتني بجوابها واستدرجتها في الحديث لاستجلاء نواياها وسألتها في تعجّب:

- تطالعينه؟ أليست المطالعة مضيعة للوقت في نظرك؟
- أنا مصرّة كلّ الإصرار على قراءة هذا الكتاب الّتي شغلك عنّي سأتصفّحه صفحة صفحة سأفحصه فصلا فصلا.
- أمرك غريب يا زوجتي العزيزة هذا اليوم، أ في ذكرى زواجنا تصرّين على قراءة كتاب، ولم كلّ هذا الإصرار وكلّ هذا العناد؟

- لأعرف ما يدور في خلدك وما يجول في رأسك من أفكار يا زوجي العزيز.
- وهل ستطالعينه الآن أم بعد تناول ما لذّ وطاب؟
- الآن ودون تأخير ولا تأجيل وهل تركت مجالا لشهيّة الطّعام أو الشّراب بعدما وقع ما وقع؟
- إذن مطالعة ممتعة ومفيدة يا زوجتي العزيزة وشهيّة طيّبة يا عزيزتي وأرجوك أوصدي الباب ورائك حتّى آخذ نصيبا من الرّاحة بعد عناء هذا اليوم.

وسكتت زوجتي هذه المرّة،ربّما لأنّها تملّكها شعور بالغلبة، وسيطرت عليها نخوة الانتصاربعد الظّفر بالكتاب و الإصرار على قراءته بالكامل وأغلب الظنّ في تقديري أن الغلبة هذه المرّة لم تكن لي أو لها بل كانت للكتاب ذاته.

وأوصدت الباب برفق ولين وبقيت غارقا في هواجسي:لأوّل مرة تصمّم زوجتي على قراءة كتاب ولأوّل مرّة كذلك أسمعها تتحدّث عن أبوابه وفصوله، ولأوّل مرة أيضا تصرّ على مطالعته قبل تناول الطّعام والشرّاب.

ولعّل مطالعتها لهذا الكتاب سيفتح شهيّتها على كتب جليلة أخرى وتنسدّ نفسها عن الأكلات اللذّيذة والمجوهرات الفاخرة

ولعلّها كذلك ستظفر بجوهرة أثمن من مجوهرات الضّيف المبجّل ولعلّها أيضا ستلتمس قيمة الكتاب في إحياء القلوب وإذكاء الأرواح وتنوير العقول وشحذ العزائم.

أليس الكتاب خير جليس في الوحدة وأفضل أنيس في الوحشة؟ أليس الكتاب جملة من الأفكار والأحاسيس والمشاعر والتجارب والخبرات والقيم؟ أليس الكتاب عالما مجهولا ينتظر من يفتحه فيكشف أسراره ويسبر أغواره ويقطف ثماره ويجمع جواهره؟

إنّ هذا الكمّ الهائل من الحروف والكلمات والجمل والفقرات المتراصّة في نظمها على شاكلة مقدّمات وأبواب وفصول وخاتمات وفهارس ومقامات وقصائد والمتناسقة في تناغم وإبداع على هيئة كتاب أو ديوان أو موسوعة أو معجم أو دوريّة أو مجلّة أو جريدة أو غيرها من مكتوب أو مقروء هو عبارة عن معين لا ينضب من المعارف والعلوم والآداب والأخلاق.

إنّه مخزون حضاريّ لكلّ الأجيال عبر الأزمنة والأمكنة.

فهل من الحكمة التّفريط فيه والتنكر لقيمته وتكديسه على الرّفوف وتخزينه في الأرشيفات وجعله في طيّ النّسيان ووأده في التّراب؟

وتوقّفت عن التّفكير لحظة لاسترجاع أنفاسي واسترخيت على فراشي وأنا مرتاح البال وقرير العين، وخاطبت نفسي قائلا:

- إنّها أفضل هديّة قدّمتها لزوجتي المصون بمناسبة ذكرى زواجنا.

هديّة ثمينة لا و لن أنساها على مرّ العصور وأظنّ أنّها لا ولن تنساها على مرّ الدّهور وأنا على يقين أن عالم النّساء عالم عجيب غريب ممتع مؤنس.

وأنا على قناعة تامّة كذلك أنّ عالم الكتب عالم أعجب وأغرب وأمتع وآنس.

في 20 جمادى الأولى 1426 هـ

الموافق 27-06-2005 مـ

حديقة بيتنا تستغيث

في ليلة دامسة شديدة الظّلمة من ليالي فصل الشّتاء، أويت إلى فراشي مبكرا بعد تناول العشاء الّذي تفنّنت أمّي في إعداده لي ولكلّ أفراد عائلتي.

إنّه فصل الشّتاء المتميّز عن بقيّة الفصول ببرده القارس ورياحه العاتيّة ومطره الغزير وإنّها ليلة من لياليه العاصفة التّي جعلتني أركن إلى فراشي في وقت مبكر.

وليل الشّتاء طويل وطويل، انتهزت طوله للتّرويح عن نفسي المثقلة بأوزار الدّراسة فأسلمتها إلى نوم عميق.

وفجأة استيقظت على قوقعة الأبواب والنّوافذ لبيتنا وحفيف أوراق أشجار حديقتنا وأزيز الرّعد ومواء قطّة من القطط السّائبة فأدركت أنّ العاصفة لم تهدأ بعد.

وحملقت في أرجاء غرفتي المظلمة وبقيت على حالة من الوجوم والوحشة والانزعاج أستمع لهذه الأصوات المتداخلة المنقبضة للنّفس.

جسم مدسوس في أغطيّة صوفيّة يتنّعم بالدّفء، عقل يحلّق بين الواقع والخيال، عينان مفتوحتان في الظّلام الحالك وفم فاغر هاأنا في هذه اللّيلة الموحشة لا أحرّك ساكنا أنتظر هدوء العاصفة الهوجاء لأغالب الأرق الذّي أصابني.

وطال بي الوجوم والانزعاج وأحسست بشيء من الكلل والملل الذّي دبّ في نفسي فسألتها:

- هل انزعجتحقّا من هذه الوحشة وهذا الانقباض؟ وهل تريدين منّي أن أدفع عنك هذا الكلل وهذا الملل؟ ولكن كيف أصرفه عنك في هذه اللّيلة المظلمة وهذا الجوّ العاصف؟

وعجّلت نفسي بالإجابة قائلة:

- خلّصني من هذا الكلل والملل بأيّ وسيلة تريد فأنا نفس لا تصبر على الوحشة والانقباض، والسّكون عندي يعني الموت، والحركة عندي تعني الحياة وأنا أحبّ الحركة

فهي رمز الحياة وأكره الجمود فهو رمز الموت وأنت هل تحبّ الحركة والحياة؟ وهل تكره الجمود والموت؟

أجبتها من دون تردّد:

- أنا كائن حيّ موجود، أفكر وأحسّ وأحبّ وأكره إذن أنا أحبّ الحركة والحياة وأكره الجمود والموت فلا تذكريني بالموت وخاصّة في هذا الهزيع الأولّ من اللّيل وهذا الظّلام الدّامس وهذا الجوّ المكفهّر ألا تكفي هذه العاصفة الهوجاء؟فإنّ ها تذكرني بالموت وعذاب القبر والحشر والنّشر ويوم القيامة وأهواله والحساب والجزاء والنّار...

وانتفضت من فراشي مذعورا واندفعت نحو زرّ النّور الكهربائي فضغطت عليه ضغطة قويّة وكدت أن أهشّمه تهشيما وقلت لنفسي القلقة:

- اهنئي وارتاحي سأجعلك نفسا مطمئنة، الآن سأدفع عنك وعنّي كلّ بلوى وسأصرف عنك وعنّي الوحشة والانقباض والكآبة.

وامتدّت يدي إلى رفّ من رفوف مكتبتي الصّغيرة فانجذب كتاب إليّ في لطف ولين وكأنّه ينتظر قدومي منذ أعوام. إنّه كتاب حجمه كبير وأوراقه البالية تميل إلى الصّفرة.

نفضت ما تكدّس عليه من غبار وعدت إلى فراشي مسرعا لمّا أحسست ببرودة شديدة تنخر عظامي وتسري في بدني من دون استئذان واندسست في غطائي الصّوفي اندساس الضبّ في جحره وبادرت بمخاطبة نفسي المضطربة:

- هذا الكتاب سيبعد عنك وعنّي الضّجر والضّيق وينسيك وينسيني هموم الحياة ومتاعبها ويهب لك ولي إمتاعا ومؤانسة ويوفّر لك ولي السّكينة والطمأنينة النّي تطلبينها وأطلبها.

وإذا بين يديّ موسوعة علمية قديمة شملت عدّة دراسات عن البحار والمحيطات والطّقس والمناخ وتضاريس الأرض واحتوت كذلك بحوثا عن الظّواهر الطبيعيّة كالعواصف والزّلازل والبراكين وأسباب حدوثها ومدى تأثيرها على حياة الإنسان والطّبيعة وطالت رحلتي مع هذه الموسوعة القيّمة لقد سحت في أرجائها وطفت في أنحائها وجلت في مناكبها فكشفت أسرارها وسبرت أغوارها وخبرت معارفها.

كتابي الأصفر هذا أنساني ما يدور حولي وحول العالم وأثار فيّ وأنا أتصفّح أوراقه الصّفراء شعورين متضاديّن: شعور أوّل براحة البال نابع من قلبي لأنّ هذه الموسوعة جعلتني أتفسّح في عالم كبير رحب زاخر بالعلوم والمعارف وكذلك جعلتني أتخلّص من عالم صغير ضيّق مليء بالضّجر والانقباض، وشعور ثان بوخز الضّمير صادر عن عقلي لأنّي أحسست أنّي كنت مقصّرا في حقّها ومهملا لقدرها لسنين طوال ممّا أدّى إلى تراكم الغبار عليها وقضم الدّواب الصّغيرة لبعض حروفها وكلماتها.

وفجأة أتن لصلاة الصّبح وهو نداء يشير إلى طلوع فجر يوم جديد، فأفقت من ذهولي وأحسست بهدوء العاصفة وعاد كلّ شيء إلى سكونه وخيّم صمت مطبق على ما حولي.

واستأنست نفسي بي واستأنست بها بعد أن لبّيت رغبتها وأجليت عنها همّها وغمّها فقلت لها وهي في نشوة وسكينة:

- لي طلب عندك فهل لديك استعداد لتلبيته؟

وأجابتني في عجل:

- السّمع والطّاعة يا صاحبي، لقد أزلت عنّي ضجري وأعدت إليّ سكينتي فكيف لا ألبّي طلبك وأنا ساكنة بين جنبيك؟
- لقد هدأت العاصفة وانقشعت الظّلمة وولّت الكآبة، فانزعي عنك رداء الكسل ولبّي نداء الفجر، ثمّ انزلي إلى الحديقة لتتنفسّي هواءها النقيّ وتستمتعي بنضارتها لتجدّدي نشاطك وتستعدّي ليوم جديد وعمل مفيد.

واستحسنت نفسي اقتراحي وقالت مذعنة لأوامري:

- لك السّمع والطّاعة يا سيّدي و يا مولاي.

قمت لتوّي فتوضّأت وصلّيت ثمّ فتحت الباب الخلفي لبيتنا في هدوء تامّ فوجدت نفسي بين أحضان حديقتنا الصّغيرة:أشجارها المتنوّعة أصولها ثابتة وفروعها في السّماء تؤتي أكلها كلّ حين، أزهارها المختلفة الأشكال والألوان يعبق عبيرها كلّ مكان.

حديقة بيتنا ذات بهجة وجمال يأخذ ألباب النّاظرين إنّها إبداع من ربّ العالمين وبستان للمشتاقين ونزهة للسائحين، فكيف لا أحبّ حديقة بيتنا؟ هكذا عهدتها دائما عروسا ليلة زفافها ولكن كيف هو حالها اليوم بعد هبوب العاصفة الهوجاء؟

ها أنذا في هذا الصّباح الباكر أنتقل بين أشجارها المخضرّة وأزهارهاالفوّاحة لأتفقّد أحوالها.

وبغتة تسمّرت في مكاني في وجوم تامّ كأنّي صنم لا حراك له وقد هالني ما رأيت: أغصان مكسّرة وأزهار ذابلة وأكياس وقوارير بلاستيكية متناثرة.

حديقة بيتنا في حزن شديد يدمي القلوب بعد هبوب الرّياح العاتيّة التّي أتت على الأخضر واليابس.

وانقلبت فسحتي إلى سآمة وخطرت على بالي أسئلة شغلت عقلي وحيّرت فكري:

من أذهب عن حديقتنا نضارتها وجمالها؟ ومن الّذي تسبّب في حزنها وشقائها؟ وكيف السّبيل إلى إدخال السّرور عليها وإسعادها؟ وماذا أفعل بفتوّتي وشبابي ل لم أوظّفها في خدمة حديقتنا؟ وهل من المعقول أن القلّة تزرع وتغرس وتقلّم وتسمّد وتقلع الأعشاب الطفيلية وتسقي والكثرة تتفسّح وتستنشق الهواء النقيّ وتستمتع بجمال الطبيعة وتجني الثّمار وتقطف الأزهار؟ ولماذا لا أعرّف نفسي بنفسي لأذكرّها بقدرتها وحدود مسؤولياتها لتكون نفسا مطمئنة خيّرة؟

أنا شاب في مقتبل عمره لم أبلغ بعد العشرين وهذه السنّ هيّ سنّ الفتوّة والشّباب, وأنا أحبّ الفتوّة والشّباب لأنّهما نبعان لا ينضبان عن الحركة والحياة، وأنا أحبّ الحركة والحياة.

بدني معافى، عضلاتي مفتولة، عقلي رشيد، قلبي سليم، ضميري حيّ، سمعي شديد، بصري حديد وأنا طالب أزاول تعليمي العالي بكليّة العلوم، وعضو ناشط من أعضاء جمعيّة المحافظة على البيئة ونظافة المحيط بقريتنا، إذن أنا صديق وفيّ من أصدقاء الطّ بيعة وأحد المدافعين عنها.

هوايتي المفضّلة التّجوال في الغابات والحقول والبساتين للتّمتع بمناظرها الخلاّبة والتّي تبعد عن نفسي الكآبة والملل. هذا تعريف مجمل بذاتي وكياني ذات توّاقة إلى النّ شاط، وكيان حيّ.

وبينما أنا على هذه الحال من الوجوم والحيرة والاضطراب إذ بصوت يناديني:

- يا أيّها الشّاب المزهوّ بفتوّته وشبابه ما هذه الأنانيّة المفرطة وهذا الاستعلاء المشطّ؟ وهل لُت حقّا صديق وفيّللطّ بيعة؟

انتابني خوف شديد اقشعر له جلدي وتلعثم لساني وخارت قواي وكدت أهوي ولكنّي تماسكت وتساءلت بصوت خافت فاتر:

- من؟ من يكلّمني؟ وماذا تريد منّي؟ وهل تعرفني؟
- أجل أعرفك جيّدا ألست من زوّاري وتتمتّع بخيراتي وتتنعّم بها صباح مساء؟ ولماذا تتجاهلني؟ أنا أمّك وأنت ولدي أنا حديقة بيتكم.
- أمّي! حديقة بيتنا!
- نعم أنا أمّك العطوف وأنت شابّ ركبتك أنانيّة وغلبك استعلاء تحبّ نفسك وتكرهني.
- أكرهك؟ معاذ الله كيف أكرهك وأنت التي تبعدين عنّي كآبتي وأحزاني فكلمّا انتابني شعور بالضّيق أسرعت إليك وارتميت بين أحضانك فتضمّينني إلى صدرك الرّحب وتسلّينني وتذهبين عنّي كللي ومللي أنت ملجئي باللّيل والنّهار وملاذي عند قلقي وأرقي بل أنت صفوة عيشي وعنفوان فتوّتي وشبابي.
- إذن أنت تعترف بجميلي وفضلي عليك وعلى أمثالك من الفتيان والشّباب ولكنّك تتجاهلني وتنساني وهذا نكران للجميل والفضل.

وحاولت استعطافها والبرهنة على محبّتي لها قائلا:

- كيف أتجاهلك وأنساك وأنا أقضّي جلّ أوقاتي بين أحضانك تارة وبين أحضان الطّبيعة تارة أخرى؟ وأؤكدّ لك أنّي أحبّك بل أحّب كلّ الحدائق والبساتين والمنتزهات والحقول والغابات، أنا محّب كبير للطبيعة وصديقها الوفيّ أسعى دوما لحمايتها من التلوّث بجميع أشكاله وأنا عنصر فعّال في جمعيّة المحافظة على البيئة ونظافة المحيط بقريتي.
- هذا اعتراف صريح يحمّلك مسؤولية أكبر إن كان لك عقل رشيد وقلب سليم وضمير حيّ وإن كنت حقّا متحمّلا لهذه المسؤولية فقدّم لي الدّليل القاطع على محبّتك لي وللطبيعة.

وشعرت بقليل من الارتياح لأنّي أملك بعض الأدّلة التي تبرّر موقفي فقلت:

- لقد سعيت مع بقيّة أصدقائي في إطار النّشاط الّذي تقوم به جمعيتنا إلى الدّفاع عن الطبيعة وحرصنا في هذا المجال على تنظيم ندوات علميّة لإبراز أهمية النّظافة

والتّنبيه من خطورة التلوّث على حياة الإنسان والمحيط والتأكيد على ضرورة الحفاظ على جماليّة قريتنا.

- وهل لديك حجّة ثانيّة؟
- بالتّأكيد أعضاء جمعيتنا أصدقاء الطبيعة يؤمنون بمبادئ ونظريات ويعملون على تحقيقها، نحن نرفض رفضا قطعيّا تلويث طرقات قريتنا وشوارعها وشاطئها وأوديتها وغاباتها ونقاوم كذلك كلّ من يريد تلويثها أو إفسادها أو العبث بها.

وأطرقت قليلا ثمّ أضفت:

- أنا لم أعبث يوما بأزهارك ولم أفكر قطّ في تكسير أغصان أشجارك أتنكرين عليّ ذلك؟

وأجابتني حديقة بيتنا باقتضاب:

- اسمع يا ولدي العزيز، هذه أدلّة غير مقنعة وحجج ضعيفة وشواهد بسيطة.

أثارني جوابها وبشيء من الانفعال نطقت:

- أبعد هذا الجهد كلّه الّتي بذلته بمعيّة أصدقائي تتهمنا بالتّقصير في الواجب نحوك ونحو الطّبيعة؟ وما هو المطلوب منّا إذن؟

وبلباقة وتعقّل أجابت قائلة:

- الانفعال يا ولدي لا يجدي نفعا والحكمة هيّ السّبيل الوحيد إلى بلوغ المرام، أنا أمّك الحبيبة أحبّك كما تحبّني بل أجزم أنّي أحبّك أكثر ممّا تحبّني وأنت شابّ في مقتبل العمر لم تحنّكه التّجارب فأنصت إليّ برويّة إنّ هذا الجهد وهذا العطاء منك ومن أصدقاء الطبيعة ظلّ نظريّا ولم يتعدّ الأمور العمليّةفأين هم أصدقاء الطّبيعة وأحباؤها وأخلاّؤها وأصفياؤها وأصحاب العقول النيّرة؟ إنّهم موجودون في نواديهم يجتمعون ويتناقشون ويخطّطون ويرسمون البرامج ويسطرون النّظريات للمحافظة على البيئة ونظافة المحيط وللقضاء على ظاهرة التلوّث...ولكن هل تمّ تنفيذ هذه البرامج وتطبيق هذه النظريات؟ وهل تمّ شراء المعاول ونزلوا إلى أرض الواقع للعمل والفعل؟ وهل تفاقمت ظاهرة التلوّث أم تقلّصت في الطبيعة؟ وهل أصبحت الشوارع والسّاحات

والبحار والمحيطات والأوديّة والشطآن والغابات نظيفة أم ازدادت تلوّثا؟ ومن المتسبّب في كلّ ما حصل وما سيحصل؟

وأضافت حديقة بيتنا في لوعة وحسرة:

- تأمّل ولو لحظة قصيرة فيما حولك، آنظر تربتي وأديمي وأشجاري وأزهاري أرضي ملوثّة، أكياس وقوارير البلاستيك متناثرة، أغصان أشجاري مكسّرة، أزهاري ذابلة فالغوث الغوث يا أصحاب العقول الرّشيدة والخلاص الخلاص يا أولي القلوب السّليمة والنّجدة النّجدة يا ذوي الضّمائر الحيّة.

وتأمّلت فيما حولي فاندهشت لهذا المشهد المؤلم وقلت مخاطبا حديقتنا الّتي تئنّ وتستغيث:

- سامح الله العاصفة الهوجاء فهي المسؤولة عن كلّ ما حدث.

لكن حديقتنا رفضت هذا التّبرير واستدركت قائلة:

- لا يا ولدي الأمر أخطر ممّا تتصوّر يجب تحديد المسؤوليات والتعرّف إلى المتسّبب الحقيقيّ لهذا التلّوث

وهذه الفوضى ولماذا تحاول التهّرب من المسؤوليّة وتحمّلها غيرك؟ في تقديري أنت المسؤول الأوّل عن تعاستي وشقائي وأنت وأمثالك مسؤولون عن تفاقم ظاهرة التلوّث.

استغربت كلامها في بداية الأمر واستوضحتها:

- أنا؟ أنا وأمثالي؟ كيف ذلك؟

- أجلأنت وجميع أصدقاء الطّبيعة والمدافعون عنها ألست إنسانا عاقلا متحضّرا؟ ألست طالبا في كليّة العلوم؟ ألست عضوا ناشطا في الجمعيّة؟ أمّا أمثالك أليسوا أناسا عقلاء متحضّرين؟ أليسوا أصدقاء للطّبيعة؟ أليسوا أعضاء ناشطين في الجمعيات؟

ثمّ أضافت في حسرة وقالت:

- وهل تنكر أنّ ظاهرة التلوّث في تزايد مستمرّ يوما بعد يوم؟ ويا ترى من ثقب طبقة الأوزون؟ ومن سكب البترول في البحار والمحيطات؟ ومن قلّل من الثّروة السّمكية؟ ومن ردم المواد المشعّة في الفيافي والصّحاري؟ ومن صرف المياه المستعملة المتعفّنة في الوديان؟ ومن ألقى الفضلات في البراري؟ ومن أحرق

الغابات؟ ومن؟ ومن؟...وإذن من هو المتسبّب الحقيقيّ في هذا التلوّث الخطير وهذه الفوضى العارمة؟ أليس هو هذا الإنسان العاقل المتحضّر؟

وتمعّنت في كلام حديقتنا ووجدت فيه وجاهة وإقناعا ومنطقا وحكمة فأجبتها بصوت مهزوم:

- حقّا إنّه الإنسان العاقل المتحضّر. ولكن كيف السّبيل إلى القضاء على كلّ هذه المظاهر السلبيّة أو الحدّ منها على الأقلّ؟ وماهي حدود مسؤوليتي ومسؤوليات أصدقاء الطّبيعة؟

أجابت بشيء من الإسهاب:

- أريد منك ومنهم أن تبرهنوا على صداقتكم المخلصة ومحبّتكم الحقيقيّة للطبيعة بالفعل وليس بالقول أريد منكم أن تفضّوا اجتماعاتكم في الحال وتخرجوا من نواديكم للتوّ وتتّجهوا إلى كلّ المواقع الملوّثة لإزالة ما علق بها من أوساخ وأقذارأريد منكم أن تترجموا نظرياتكم ومبادئكم إلى ملموس محسوسأريد منكم أن تقلّلوا من القول وتكثروا من الفعل، أريد منكم أن تكونوا عمليّين جادّين، إنّ مسؤوليّة الحفاظ على البيئة ونظافة المحيط

هي مسؤولية الصّغير والكبير والمرأة والرّجل، إنّها مسؤوليّة كلّ الأفراد وكلّ الجماعات من دون استثناء، أليس كذلك؟

وسارعت إلى إجابتها مؤكدّا كلامها:

- بالفعل إنّها مسؤوليّة مشتركة يساهم فيها كلّ فرد حسب وسعه وموقعه وإنّ التهرّب منها كارثة تلحق بالجميع.

بقيت واجما مشدوها لا أحرّك ساكنا وقد انتابني شعور بالتّقصير في حقّ حديقة بيتنا خاصّة وفي حقّ الطّبيعة عامّة، ودون مماطلة أو تسويف شرعت في الفعل: بادرت بالتقاط الأكياس والقوارير البلاستيكيّة وتجميع الفضلات والأوراق المتناثرة هنا وهناك. ثمّ أسرعت إلى معول من معاول حديقتنا وانهمكت في قلع الأعشاب الطفيليّة وعزق تربتها النديّة وريّ أشجارها المخضرّة وأزهارها الفوّاحة وعادت حديقة بيتنا إلى نضارتها وبهجتها وجمالها.

لقد تصبّب منّي العرق فروى حديقتنا العطشى وتبلّل لباسي وبلغ منّي الجهد كلّ مبلغ وأخيرا انتصبت قائما وصرخت بأعلى صوتي:

- أنا اليوم حقّا صديق وفيّ لحديقة بيتنا وللطّبيعة وأنا فخور بهذه الصّداقة.

.....

...وضمّني فراشي من جديد وهنئت بنوم عميق.

وفجأة أحسست بيد تربّت على كتفي برفق وسمعت صوتا رخيما يخاطبني:

- انهض يا ولدي العزيز لقد حان وقت الذّهاب إلى كلّيتك.

وأدركت أنّه صوت أمّي فأجبتها في تثاقل:

- أرجوك يا أميّ دعيني أرتح قليلا فقد أنهكني التّعب وأخذ منّي كلّ مأخذ.
- ما بك يا ولدي؟ ماذا دهاك؟ عهدتك دائم النّشاط والحيويّة فلم هذا التّكاسل؟
- اطمئنّي يا أمّي العزيزة أحتاج فقط إلى قليل من الرّاحة.

واقتربت من فراشي ووضعت يدها على جبيني فانزعجت لحالي وقالت:

- جبينك يتصبّب عرقا وحرارتك مرتفعة، إنّها الحمّى يا ولدي.

- لا لا لست محموما يا أمّي أنا سليم ومعافى من كلّ داء ولم يصبني أيّ مكروه أنا اليوم أسعد مخلوق على الأرض لأنّي تركت القول وشرعت في الفعل.
- إنّك تهذي يا ولدي العزيز وهذا الهذيان علامة من علامات الحمّى أنت تحتاج الى دواء يزيل عنك سقمك.
- اطمئني يا أمّي أنا لا أهذي أنا في كامل مداركي العقليّة وإن كنت ترغبين في معرفة الحقيقة فاخرجي إلى حديقة بيتنا فإنّها في انتظارك.

في 21 جمادى الأولى 1426 هـ

الموافق 28-06-2005 مـ

زائر مرفوض

البارحة زرت[1] مدينة من أعظم مدن الدّنيا، إنّها مدينة ليست ككلّ المدن: ناطحات السّحاب تعانق السّماء أو تكاد، أرجاؤها مترامية الأطراف، شوارعها الفسيحة بانت آفاقها، ساحاتها الرّحبة انتصبت فيها تماثيل مختلفة أشكالها وأحجامها.

كلّ ما في هذه المدينة السّاحرة للعقول والآخذة بالنّفوس يدلّ على العظمة والفخامة والبهرجة وبقيت ساعات وساعات أجول بين أنحائها, فانبهرت بما شاهدت ورأيت وسمعت.

وفجأة استوقفني تمثال شامخ شموخ الرّواسي بين السّهول وأبصرت قدّامي معلما فنيّا من معالم الحضارة المعاصرة فريدا في هوله عجيبا في نحته.

وداومت على التأمّل فيه وواصلت الدّوران حوله وقد ملكتني الدّهشة والاستغراب من كبريائه وزهوه.شرعت في الطّواف حوله وتتالت الأشواط، الشوّط الأول فالثّاني

[1]هذه الزيارة حصلت في منامي وهي حلم من أحلامي ولا تمتّ لليقظة والواقع بأيّ صلة ولكنّها زيارة ليست ككل الزّيارات لذلك آثرت أن أسرد وقائعها لأنّها خلّفت في نفسي آثارا عميقة لا تمّحي أبدا.

فالثّالث...فالسّابع، وحرصت على إتمام الأشواط السّبعة لأستنير بقبسه وأستلهم جذوته.

وأحسست كأنّني راهب متبتّل في معبد من المعابد، ارتقت روحه من العالم السّفلي إلى العالم العلوي. وبقيت مذهولا مشدودا صائما عن الأكل والشّرب والكلام طوال أحيان وأحيان من الزّمن.

وهجم الظّلام وسكن اللّيل وطلع الهزيع حتّى تبيّن الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر وانبلج الصّبح وأنا على هذه الحالة: حالة طواف صادق وتبتّل صاف وتعبّد خالص، عنقي مشرئبّة إليه وإلى عنان السّماء وبصري معلّق بيده القابضة على شعلة من نار ملتهبة دون انقطاع.

إنّه مشعل الحريّة جذوة من نور تنطلق أنوارها إلى كلّ العالم من بلد الدّيمقراطية، نور على نور عابر لجميع قارّات الأرض وبلدانها غنيّها وفقيرها، جاثم على سماواتها بنجومها وكواكبها، متناثر بين نسماتها ورياحها، مستقرّ بحضرها وبواديها، ساكن في أدغالها وكهوفها وغاباتها، هائم بين هيمها وسوائمها كبيرها وصغيرها، سابح في محيطاتها وبحارها وأنهارها...

وطال التأمّل والنّظر بالبصر والبصيرة والحدس والإحساس، واختلطت المشاعر والأفكار وتداخلت في قلبي وعقلي.

أظنّ أنني الآن أطوف بتمثالي ومعبودي وأنا في الشوّط الأخير وتأكدّت من ذلك بانبلاج النّهار وإشراقة الشّمس جليّا إنّه الشّوط السّابع والأخير وهو يسير إلى بداية النّهاية لطوافي وتبتّلي وتعبّدي.

وبغتة طرق سمعي صوت جهوريّ يناديني ويخاطبني فتسمّرت في مكاني واستمعت له بكلّ جوارحي وأحاسيسي فأنشأ يقول:

- يا أيّها الزّائر الغريب في حركاته وسكناته ونواياه والمشبوه في طوافه وتبتّله وتعبّده ماذا تريد منّي؟ ولماذا أطلت البقاء بجانبي من غروب الشّمس إلى شروقها؟ وهل تنوي تحطيمي أو سرقتي؟

أيقنت أنّ مخاطبي هو التّمثال عينه فهو الّذي يحرّك لسانه وشفتيه ويرفع يديه وينزلهما وقد بانت على وجهه قسمات الرّيبة والانزعاج.

وأجبته في تلعثم:

- أنت سيّدي ومولاي وأنا عبدك الضّعيف فكيف أفكرّ في تحطيمك أو سرقتك؟ وأرجو منك أن تحسن الظنّ بي.

فردّ عليّ بغيظ وحنق شديدين:

- لم أطلب منك أن تعرّفني بنفسك فأنا أعلم بك من ذاتك الحقيرة، أطلب منك فقط الإجابة عن أسئلتي الّتي وجّهتها إليك.

وأسرعت في الإجابة:

- عفوا يا سيدي ويا مولايّ فأنا عبدك الذّليل وأنا على أتمّ الاستعداد للردّ عن أسئلتك بصراحة وعفويّة وفي كلمة واحدة بكلّ حريّة.
- لا تتهرّب من الجواب وكفاك مماطلة وخداعا.

تبرّمت من كلامه وحاولت تطمينه فقلت:

- معاذ الله يا سيّدي أ أماطل وأخادع مولاي؟
- أنت مماطل لا مثيل له ومخادع من الطّراز الرّفيع، كفاك هراء ونفاقا، قلت لك أجب عن أسئلتي وإلاّ قصمت ظهرك وسلّطت عليك من العذاب ألوانا.

وتملّكني الفزع الأكبر وتمتمت وفي قلبي غصّة:

- كيف أنجو من كرب حلّ بي دون استئذان يا ربّي ويا خالقي؟

وجاء ردّ مخاطبي عنيفا:

- ما هذه الهمهمة أيّها اللّعين، أيّها السّفيه، أيّها النّذل؟ لا تتظاهر بالبلاهة والغباء والحماقة، المطلوب منك الإجابة عن أسئلتي دون لفّ.

وتيقّنت أنّ سيدي ومولاي قاسي القلب شديد العناد بعد أن ظننت فيه أحسن الظّنون واعتبرته مخلّصي من الشّقاوة. أسلمت وجهي إلى خالقي ورفعت أكفّ الضّراعة إلى السّماوات العلى وقلت في نفسي دون أن يسمعني مخاطبي:

- يا إلهي يا خالقي يا أرحم الرّاحمين وأكرم الأكرمين يا ربّ العالمين يا ربّ العباد والمعبودات، ناصيتي في قبضتك فألهمني رشدي وآمن روعتي وارفع البلوى عنّي.

وهدأت نفسي وسكنت روحي وتنوّر عقلي وولّى عنّي فزعي وانطلق لساني. وإذا بمخاطبي يعاود الكرّة ويعود إلى جبروته وقسوته ويرفع صوته ليسمع القاصي والدّاني ويقول:

- أيّها العبد الحقير نفد صبري لقد أمهلتك وقتا للإجابة عن أسئلتي ولكنّك تحاول كلّ مرّة التهرّب منها استعدّ الآن إلى أقسى ألوان العذاب فأنزع ثيابك وأخلع نعليك واقترب من جذوة النّار الّتي في قبضتي.

وألهمت رشدي فأجبت على الفور:

- ولكن ما الجرم الّذي اقترفته لتسلّط عليّ كلّ هذا العقاب؟ ولم جعلتني في قفص الإتّهام؟

تلفّظ بغلظة وقال:

- أو لم تعلم بعد ما اقترفت يداك من جرائم؟ أوّلا لأنّك تماطل وتخادع ولا تجيب عن أسئلتي، ثانيّا لأنّك أجرمت في حقّي وحقّ المبادئ الإنسانية كلّها.

واستدرجت التمثال في الحديث وأجبته دون خوف أو تردّد:

- هذه اتّهامات باطلة ولماذا تكيل لي التّهم جزافا وتريد أن تصنع منّي مجرما رغم أنفي؟ وأيّ أسئلة ترغب منّي

الإجابة عنها؟وما هي الجرائم النّي اقترفتها في حقّك وحقّ المبادئ الإنسانية؟

وردّ عليّ بحنق وحدّة غير مسبوقين:

- ما هذه الوقاحة؟ أو تجرؤ على مساءلتي؟ فأنا سائلك وأنت المجيب، إنّك حقّا قذر، عديم الحياء،مجرم.

وتسلّحت بإيماني وثباتي على الحقّ وتمسّكي بالصّبر وقلت له:

- هذا كلام فيه وعيد ونذارة هذه لغة الضّعفاء وليست لغة الأقوياءفإن كنت تزعم أنّك عظيم فآسلك معي لغة الوعد والبشارة ولغة التعقّل والحوار ولغة القيم والمبادئ الإنسانيّة.

واستفسرته قائلا:

- أو لست رمزا للحريّة مدافعا عنها بكلّ الوسائل ساعيا إلى بثّها في كلّ أصقاع الدّنيا بين الأقوياء والضّعفاء والرّجال والنّساء والشّباب والأطفال؟

وأجابني مخاطبي بعنجهيته المعهودة:

- بلى أنا رمز الحريّة بل أنا الحريّة ذاتها، أنا جذوة من نار تتوهّج نيرانها فيصل لهبها إلى البراري والفيافي والصّحاري وأعماق البحار أنا كائن حرّ يسكن عقول الكبار والصّغار، أنا دم يجري في عروق الّتوات البشريّة منذ أن خلقت على وجه البسيطة،أنا الهواء الّذي تتنفّسه كلّ الكائنات الحيّة جليلها وحقيرها، أنا شمس تسطع على الكون كلّه،أنا سماء تظلّل الكواكب والنّجوم والأجرام، إذن لا حياة ولا نماء ولا عمران بدوني فهل عرفت قدري؟

وجاريته فقلت:

- كلّ الألسنة تلهج بذكرك صباح مساء, وكلّ العيون تشتاق الى رؤيتك آناء اللّيل وأطراف النّهار وكلّ الآذان ترنو إلى سماع صوتك وكلّ الأيدي تسعى إلى التشبّث بأهدابك لتشمّ رائحتك وتنعم بدفئك وتستضيئ بنورك وأنا واحد منهم، تركت وطني ومسقط رأسي من أجلك ولأجلك.

واستغرب كلامي قائلا:

- من أجلي؟ ولأجلي؟

قلت ملتمسا منه شفقة وحنانا:

- لقد هجرت الأهل وهاجرت الوطن وتكبّدت مشاق السّفر للوصول إليك.
- وماذا تريد منّي بالتّحديد؟
- عزمت على زيارتك للاقتراب من جذوة نورك حتّى أكون عبدا حرّا وعاشقا من عشّاقك وأحببت كذلك أن تشملني برعايتك وعطفك وتضمّني إلى صدرك وتغدق عليّ من فضائلك وتبعث فيّ أنوارك وها أنا اليوم بين يديك فهل جعلتني زائرا أو ضيفا أو مقيما بين أحضانك؟

قاطعني مخاطبي بغلظة فقال:

- لا مرحبا بك زائرا ولا ضيفا ولا مقيما،أنا أرفض هذا الصّنف من الزّائرين والضيّوف والمقيمين.

واستدركته قائلا:

- ولكن لماذا ترفضني؟ ولماذا لا تقبل ولائي لك وتمتنع عن صداقتي؟

وأجاب بامتعاض:

- أرفضك لأنك تجهل ذاتك وأصلك، أرفضك لأنّك تتنكر لأهلك ووطنك، أرفضك لأنّك تحمل أفكارا هدّامة ومشاعر مريبة مازالت تعشّش في عقلك وقلبك وروحك.

وتنهّدت وقلت:

- لم هذا التكبّر والاستعلاء على عاشق من عشّاقك؟

استشاط النّمثال غضبا وأمطرني بوابل من الشتائم وردّ مستهزئا:

- غيّر لونك قبل أن تقترب منّي، قوّم ذاتك قبل أن تكسب ولائي، اعرف كيانك قبل أن تنال صداقتي، غيّر أصلك قبل أن تشمّ رائحتي، أبدل فرعك قبل أن تتذوّق طعمي، عد إلى أهلك ووطنك قبل أن تحظى بقبولي، أفرغ عقلك وقلبك وروحك قبل أن تستضيء بشعلتي.

أفهمت أيّها الضّعيف الحقير النّافه؟

وأضاف زاجرا مزمجرا:

- والآن ولّ عنّي وانصرف إلى حيث أتيت وسأجعلك تحت مجهري ورقما في برمجياتي وأخيرا أصرّح وأقول: أنت غير مرغوب فيك، بل أنت مرفوض، مرفوض، مرفوض.

واستغربت موقف مخاطبي العجيب وأدركت أن لا فائدة في مواصلة الحوار معه وهو على هذه الصّورة من الاستكبار و هذا الشّكل من الاستعلاء.

وقرّرت في الحين قطع زيارتي والرّجوع فورا إلى كياني وأهلي وعشيرتي وبني جلدتي ووطني وموطني.

وآليت على نفسي ألاّ أفرط في عقلي وقلبي وروحي وعقدت العزم على أن أسكن إنسانيتي وفطرتي الّتي عليها فطرني خالقي دون أن أغيّر خلقي وخلقتي.

في 30 شوّال 1426 هـ

الموافق 02-12-2005 مـ

السّيرة الذّاتية للمؤلّف

1.بطاقة إرشاديّة:

- **الإسم واللّقب:** محمّد كمال بن عثمان ونّاس.
- **تاريخ الولادة ومكانها:** 22 أوت 1950 بقصيبة المديوني (ولاية المنستير) الجمهورية التّونسيّة.
- متزوّج وأب لبنت وثلاثة أبناء.

2.المستوى التّعليمي:

- زاول تعليمه الإبتدائي بداية من سنة 1956 إلى سنة 1962 بالمدرسة الإبتدائيّة بمسقط رأسه قصيبة المديوني
- إلتحق بالتّعليم الثّانوي من سنة 1963 إلى سنة 1966بالمعهد الثّانوي بالمنستير.
- واصل تعليمه الثّانوي والتّرشيحي من سنة 1966 إلى سنة 1969 بمدرسة ترشيح

المعلّمين بصفاقس و تحصّل على "**ديبلوم الدّروس الثّانوية والتّرشيحيّة**" سنة 1969 (دورة جوان).

- إلتحق في سنة 1969 بالكلّية الزّيتونيّة للشّريعة وأصول لدّين بتونس التّابعة للجامعة التّونسيّة.
- توّج تعليمه العالي سنة 1973 بالحصول على "**الإجازة في أصول الدّين**" (دورة جوان) بملاحظة قريب من الحسن.

3.الحياة المهنيّة:

- عمل بالمدارس الإبتدائيّة كمعلّم من سنة 1969 إلى 1973.
- باشر التّعليم بالمدارس الإعداديّة والثّانوية كأستاذ تعليم ثانوي، إختصاص التّربية والعلوم الإسلامية بداية من 1973 إلى سنة 2005.

- تمّ إلحاقه من سنة 1981 إلى سنة 1985 بالمركز الإسلامي والثّقافي ببروكسال (بلجيكا) كمدرّس للدّين الإسلامي باللّغتين العربيّة والفرنسيّة للجالية الإسلاميّة.
- أحيل على التّقاعد سنة 2005.

4.الحياة الجمعياتيّة:

شارك في الحياة الجمعياتيّة بمدينة قصيبة المديوني بصفة:

- عضو مؤسّس لجمعيّة أحبّاء المكتبة والكتاب من سنة 1978إلى سنة 1980.
- نائب رئيس جمعيّة التّضامن الإجتماعي من سنة 1986 إلى سنة 1988.
- رئيس الجمعيّة القرآنيّة من سنة 1990 إلى سنة 1992.

- مدرّس آفاق تابع لوزارة الشّؤون الدّينيّة بداية من جانفي 2013إلى سنة 2015
- رئيس جمعيّة الدّعوة والإصلاح بداية من مارس 2013 إلى سنة 2016

5.المقالات و المؤلفات

- نشر العديد من المقالات و القصص والقصائد في الصّحف التّونسيّة.
- كتب مؤلفات أبرزها:
  - القرية المهجورة (مسرحية 1976).
  - عقلاء أم مجانين (مجموعة قصصيّة 2005).
  - البيان المفيد في علوم القرآن المجيد (دراسة 2013).
  - سبيل النّجاة في فقه الزّكاة (رسالة 2013).

- الخلاصة المفيدة في أصول العقيدة (رسالة 2014).
- بلوغ المرام في فقه الصّيام (رسالة 2015).
- تذكرة الأنام بأحكام الجنازة في الإسلام (رسالة 2015).
- إرشاد البريّة إلى المعارف السنيّة (رسالة 2016).

الفهرس

الإهداء والتّقديم	5
1. هاتف غريب	9
2. صديق أم عدوّ؟	16
3. جريمة ضدّ مجهول	30
4. صراخ وثغاء	45
5.هكذا نطق الّطفل المدلّل	59
6. شهيّة طيّبة يا عزيزتي	81
7. حديقة بيتنا تستغيث	100
8. زائر مرفوض	118
السيرة الذاتيّة	129